عمرو بن العاص

إعداد

صلاح عبد الحميد

مؤسسة دار الفرسان
للنشر والتوزيع
٥١ ش إبراهيم خليل – المطرية :

اسم الكتاب : فرسان الإسلام) عمرو بن العاص
(المؤلـــف : صلاح محمد عبد الحميد
الناشـــر : مؤسسة دار الفرسان
تصميم الغلاف:
رقم الإيداع : ٨٩٢١
طبعة ثانية : ٢٠١٥

فهرسة أثناء النشر

صلاح محمد عبد الحميد
فرسان الإسلام / صلاح محمد عبد الحميد – القاهرة .- ط١
مؤسسة دار الفرسان للنشر والتوزيع
٨٠ ص ؛ ٢٤ سم
تدمك :- ٩٧٧-٦١٦٩-٢٨-٧
١ – الإسلام - تراجم
أ. العنوان ٩٢٢,١

آية قرآنية

بسم الله الرحمن الرحيم

(فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ

إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمًا)

صدق الله العظيم

طه 114

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

صحابة رسول الله هم من صحبوا رسول الله محمد بن عبد الله وآمنوا بدعوته. والصحبة في اللغة هي الملازمة والمرافقة والمعاشرة. رافق الصحابة رسول الله محمد بن عبد الله في أغلب فترات حياته بعد الدعوة، وساعدوه على إيصال رسالة الإسلام ودافعوا عنه في مرات عدة. وبعد وفاة رسول الله محمد بن عبد الله قام الصحابة بتولي الخلافة في الفترة التي عرفت بعهد الخلفاء الراشدين، وتفرق الصحابة في الأمصار لنشر تعاليم الإسلام والجهاد وفتح المدن والدول. وقاد الصحابة العديد من المعارك الإسلامية في بلاد الشام وفارس ومصر وخراسان والهند وبلاد ما وراء النهر.

عن أبو هريرة_رضي الله عنه_ عنه قال : قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– (لا تسبوا أصحابي لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه) "

وسبب تفضيل نفقتهم أنها كانت في وقت الضرورة ، وضيق الحال بخلاف غيرهم ،

ولأن إنفاقهم كان في نصرته –صلى الله عليه وسلم– ، وحمايته ، وذلك معدوم بعده ، وكذا جهادهم وسائر طاعتهم ، وقد قال تعالى (لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً)(الحديد:10) وهذا كله مع ما كان فيهم في أنفسهم من الشفقة ، والتودد ، والخشوع ، والتواضع ، والإيثار ، والجهاد في الله حق جهاده ، وفضيلة الصحبة ولو لحظة لا يوازيها عمل ، ولا ينال درجتها بشيء ، والفضائل لا تؤخذ بقياس ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء "

وقال البيضاوي _رحمه الله تعالى_ : " معنى الحديث لا ينال أحدكم بإنفاق مثل أحد ذهبا من الفضل والأجر ما ينال أحدهم بإنفاق مد طعام أو نصيفه ، وسبب التفاوت ما يقارن الأفضل من مزيد الإخلاص ، وصدق النية) " مع ما كانوا من القلة ، وكثرة الحاجة والضرورة " وقيل " السبب فيه أن تلك النفقة أثمرت في فتح الإسلام ، وإعلاء كلمة الله ما لا يثمر غيرها ، وكذلك الجهاد بالنفوس لا يصل المتأخرون فيه إلى فضل المتقدمين لقلة عدد المتقدمين ، وقلة أنصارهم فكان جهادهم أفضل ، ولأن بذل النفس مع النصرة ، ورجاء الحياة ليس كبذلها مع عدمها

"ومما جاء في فضلهم –رضي الله عنهم– حديث عبد الله بن مسعود_رضي الله عنه_ عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال :(خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)

"وإنما صار أول هذه الأمة خير القرون؛ لأنهم آمنوا به حين كفر الناس ، وصدقوه حين كذبه الناس ، وعزروه ، ونصروه ، وآووه ، وواسوه بأموالهم وأنفسهم ، وقاتلوا غيرهم على كفرهم حتى أدخلوهم في الإسلام"

ومما جاء في فضلهم ما رواه أبو بردة _رضي الله عنه_ قال : قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم – (النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد ، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون ، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون) " وهو إشارة إلى الفتن الحادثة بعد انقراض عصر الصحابة من طمس السنن وظهور البدع وفشو الفجور في أقطار الأرض"

وها هو أمير المؤمنين علي_ رضي الله عنه_ يصف حال الصحابة فعن أبي راكة قال : صليت خلف علي صلاة الفجر فلما سلم انفلت عن يمينه ثم مكث كأن عليه الكآبة حتى إذا كانت الشمس على حائط المسجد قيد رمح قال : لقد رأيت أصحاب محمد –صلى الله عليه وسلم–

فما أرى اليوم شيئا يشبههم كانوا يصبحون ضمرا شعثا غبرا بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله ويراوحون بين جباههم وأقدامهم فإذا أصبحوا ذكروا الله مادوا كما تميد الشجر في يوم الريح فهملت أعينهم حتى تبتل ثيابهم.

فالصحابة هم الذين عر فوا من أحوال رسول الله محمد بن عبد الله ما جعلهم يهرعون إليه ويضعون مقاليدهم بين يديه ينغمسون في فيضه الذي بهر منهم الأبصار وأزال عنهم الأكدار، وصيرهم أهلاً لمجالسته ومحادثته ومرافقته ومخالطته، حتى آثروه على أنفسهم وأموالهم وأزواجهم وأولادهم، وبلغ من محبتهم له وإيثارهم الموت في سبيل دعوته للإسلام أن هان عليهم اقتحام المنية كراهة أن يجدوه في موقف مؤذ أوكربة يغض من قدره

وهناك عدة ثوابت عند أهل السنة عن الصحابة، منها:

- الصحابة كلهم عدول، لا يجوز تجريحهم ولا تعديل البعض منهم دون البعض.

- الصحابة لم يذكرهم الله في القرآن إلا وأثنى عليهم وأجزل الأجر والمثوبة لهم، ولم يفرق بين فرد منهم وفرد ولا بين طائفة وطائفة. وفيهم يقول النبي محمد) :خيرالقرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)

ولعل من القائد الحوارى الزبير بن العوام من حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم له صفاته الخاصة به وكذلك له حياته الخاصة التى سوف نعرض لها فى هذا الكتاب لإلقاء الضوء على شخصية الصحابى الجليل الزبير بن العوام فى هذه السطور .

المؤلف

من هوعمرو بن العاص ؟

عمرو بن العاص السهمي القرشي الكناني592) م682 - م(، أبو عبد الله، ابن سيد بني سهم من قريش العاص بن وائل السهمي، أرسلته قريش قبل إسلامه إلى الحبشة ليطلب من النجاشي تسليمه المسلمين الذينهاجروا إلى الحبشة فرارا من الكفار وإعادتهم إلى مكة لمحاسبتهم وردهم عن دينهم الجديد فلم يستجب له النجاشي .وبعد إسلامه فتح مصر بعد أن قهر الروم وأصبح والياً عليها بعد أن عينه عمر بن الخطاب.

و أبرز ما عرف عن عمرو بن العاص أنه كان أدهى دهاة العرب في عصره ، فقد نقلت عن سعة حيلته و عبقرية تدبيره روايات تشبه الأساطير ، حتى ان الخليفة عمر بن الخطاب لقبه بأرطبون العرب

هو : عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم عمرو هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

أمه : النابغة بنت خزيمة بن الحارث بن كلثوم بن حريش بن سواءة بن جوشن بن عمرو بن عبد الله بن خزيمة بن الحارث بن جلان بن عتيك بن أسلم بن يذكر بن عنزة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان .

وكانت أمه سبية وإخوته من أمه :عروة بن أثاثة العدوي القرشي، وعقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري القرشي.

دهاء عمرو بن العاص فى الجاهلية

عرف عن العرب المتقدمين, -والذين عاصروا فترة الجاهلية والبعثة المحمدية- أن دهاة العرب هم الأربعة بداية بالثلاث الأكثر شهرة : معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة, أما رابعهم فهو زياد بن سمية أو زياد ابن ابيه المتأخر قليلاً عنهم, والذي رجح الأغلب أنّه ابن ابي سفيان بن حرب وقد قيل أنّه – أي ابا سفيان – كان يتردد على جارية في الجاهلية وهي سمية أم زياد .. والواقع أن الدهاة كثر فأبو سفيان بن حرب نفسه كان أحد الدهاة وإن كان أقل من هؤلاء الأربعة مرتبةً, وقد يكون ما ينسب زياد لأبي سفيان هو أنه – أي أبا سفيان – داهية وابنه معاوية من الدهاة إذن فالمنطق يقول أن زياد الداهية الآخر هو الأقرب لعائلة الدهاة هذه.

الواقع أن هذا الحديث لا يعني شيئاً إذا ما علمنا أن الداهية الأكبر والأعظم في التاريخ الإسلامي والجاهلي ليس من هؤلاء الأربع, وليس خامسهم الأقل مرتبة في الدهاء – أبو سفيان – ,

بل هو أشدّهم ورعا وأكثرهم تقوى وأصدقهم إيمانَا وأعظمهم هيبةً و أبسطهم منطقاً .. عمر بن الخطاب بن نفيل العدوي القرشي .. الرجل الثاني في الإسلام بعد الرسول عليه الصلاة والسلام .. نعم إنه عمر .. أكثر العرب دهاء من هؤلاء و أصدقهم دهاء .. والحقيقة أن لفظ " دهاء " قد لا يتناسب مع شخصية إسلامية إذا ما أُخذَ على أ نّه " مكر وخديعة " , ولذلك يقول الصحابي الجليل قيس بن سعد " لولا الإسلام لمكرت مكرا " بمعنى أن الإسلام ينهى عن ذلك .. لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه يلخّص الموضوع ببساطة وبلاغة فيقول " : لستُ بالخِبّ ولا الخبُّ يخدعني .. " فهو يبين هنا بمعرض حديثه عن نفسه : أنني لست بالماكر المخادع, ومع ذلك لا يستطيع أي ماكر أن .ينال مني بدهائه

ولو رأينا مواقف عمر مع هؤلاء الدهاة لاستنتجنا أن دهاءه فاق دهاءهم , وعلمه تعدى علمهم, وفراسته تجلّت في حين خانتهم فراستهم ولنبدأ بأبي الدهاة أبو سفيان, فقد قيل أنه رجع من دمشق مـ ن عند ابنه معاوية, وشك عمر أن معاوية أعطى لوالده شيئاً من أموال الشام فلما سأله عما إذا نال شيئاً من ابنه, أنكر هذا .. فأخذ عمر خاتم أبي سفيان وأرسله مع خادمه إلى هند بنت عتبة زوجته وقال لها" : يطلب منك أبا سفيان أن تأتيه بخرجين ."وما لبث عمر أن أوتي بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم!!

أما عن زياد ابن ابيه فلقد ولد في السنة الأولى من الهجرة ولذا فلم يكن ليعي منزلة عمر بعد أن كَبر, أو أن يكون هناك ثمة لقاء بين الإثنين إلا أنه ثبت في الكتب وفي مقالات العرب أن زياداً كان في مجلسٍ فيه عمر فتحدّث بكلام منمق وفصل فيه بقدرته على الكلام فأعجب به عمر وقال : لله هذا الغلام ! .. لو كان قرشيا لَساق العرب بعصاه !ومما يروى أن أبا سفيان كان جالسا حينما قال عمر هذا الكلام, فهمس لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه : أنّه والد هذا الغلام – على زياد – فسأله علي : أن لماذا لم تعترف به وتستلحقه .. فقال أبو سفيان : أخاف هذا الجالس .. أن يخرق علَيَّ إهابي .. ويقصد بـ : هذا الجالس عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وجاء معاوية من بعد والده ووعد زياداً أن يعترف به أخٌ من والده أبو سفيان .. وكان ذلك فجاءه الرد مسرعاً من ابن المفرغ الحميَري الذي كان أحد خصوم معاوية بثلاثة أبيات زلزلت هذه الشهادة والإعتراف من معاوية بزياد –الأخ الجديد– فقال:

ألا أبلغ معاويةَ بن حربٍ ... مغلغلةٌ عَن الرجل اليماني أتَغضب أن يقال : أبوك عفٌّ ... وترضى أن يقال : أبوك زاني!؟

فاشهد أن رحمكَ من زيادٍ ... كرَحمِ الفيلِ من ولَد الأتاني

وفي الواقع أن معاوية يعد في المنازل الأولى من الدهاء والمراتب المتقدمة في الفراسة, وقد قال مرة يوازن بين الخلفاء " : أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده .. وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها , وأما نحن فتمرغنا فيها ظهرا لبطن .. " وقيل أن عمر قدم على معاوية مرة فاستقبله معاوية بموكب فجاوزه عمر وأعرض عنه فأقبل إليه معاوية فأعرض عنه ومشى فقال عبد الرحمن بن عوف لعمر : أتعبت الرجل! , فسأل عمر معاوية قائلاً : يا معاوية أنت صاحب الموكب آنفاً مع ما بلغني من وقُوف ذوي الحاجات ببابك قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : ولم ذلك قال : لأنّا في بلاد لا يمتنع فيها من جواسيس العدوِ فلا بدّ لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان فإن أمرتني بذلك أقمتَ عليه وإن نهيتني عنه انتهيت . قال : لئن كان الذي قلتَ حقا فإنه رأي أريب ولئن كان باطلًا فإنها خدعة ولا آمرك به ولا أنهاك عنه.

وقيل أنه لما فتحت القدس أشار معاوية لعمر بأن يرتدي أبهى الثياب ويركب أفخم المراكب فيدخلها ويتسلّم مفاتيحها؛ فقالوا أن عمر أخذ بوصية معاوية لكنه تراجع فورا وأنّبه على ذلك بأقسى العبارات ودخل بيت المقدس بأسماله البالية وحماره فلما رآه الراهب قال أن : هيئتك هذه وردت في كتابنا ووالله لو لم تأت بهذه الهيئة لما اعطيناك مفتاحها ! وقال البعض أنه نهر معاوية منذ البداية ولم يمتثل لوصيته , وسواء أخذ بوصيته وتراجع فيما بعد, أم نهر معاوية فورا ووبخه فكلاهما فعل حق يبرهن على دهائه.

هذا دأب عمر مع عائلة أبي سفيان بن حرب .. زياد – المنسوب لأبي سفيان –ومعاوية, ووالدهم

أما مع عمرو ابن العاص – الداهية الأموي الرابع الذي يجتمع نسبه مع الثلاثة السالفة ذكرهم في أمية , فأشهر رواية تبين جلْد عمر وقوته وهي القصة التي درسناها منذ الإبتدائية المختومة بالقول المأثور عن الداهية عمر بن الخطاب : يابن العاص متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارا !؟ وبالرغم من تسيير عُمَر لِعَمْرو بالقوة والجبر

إلا أن عمرو بن العاص كان يقول عنه ": لله در ابن حنتمة أي امرئٍ كان "! وحنتمة هي والدة عمر بن الخطاب كان عمرو بن العاص يهاب عمر ويعلم صنيعه إذا ما أخطأ وداهن, وابن العاص رضي الله عنه يقدّر لعمر هذا الأمر ويكبِره في نفسه ؛ فكان إن أشكلت عليه الأمور – وهو داهية – أرسل إلى عمر يستفتيه, ومنها أن نيل مصر انحبس عن الناس ولم يفض وكانت لأهل مصر سنّة أنهم يرمون فيه جارية بكر فناههم عمرو عن ذلك وارسل إلى الفاروق بأمرهم فأرسل إليه عمر رسولاً يقول له : إذا بلغك كتاب أمير المؤمنين فارمه في النهر – نهر النيل– .. ففتح عمرو رسالة عمر إلى نهر النيل فإذا فيها ": من عبد الله : عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر أما بعد : فإن كنت تجري من قبَلِك, فلا تجرِ ! وإن كنت تجري بأمر الله الواحد القهّار فنسأل الله تعالى ان يجريك " فرمى بها إلى النيل ففاض!

وإذا سردنا أمر المغيرة بن شعبة فهو من دهاة الجاهلية ودهاة الإسلام والذي قيل فيه : لو أن مدينة لها ثمانية أبواب, لا يخرج من بابٍ منها إلا بمكر! لخرج من أبوابها كلها .فيروى ان عمر بن الخطاب سأل:"ما تقولون في تولية ضعيف مسلم، أو قوي فاجر ؟"

فقال له المغيرة ": المسلم الضعيف إسلامه لك، وضعفه عليك وعلى رعيته، وأما القوي الفاجر ففجوره عليه، وقوته لك ولرعيتك " فرد عليه عمر بكل التجرد قائلاً له": فأنت هو، وأنا باعثُك يا مغيرة إلى الكوفة " ولعل المغيرة كان كأمر معاوية يحاول أن يفلت من قبضة عمر بأيسر الطرق التي يرتضيها عمر .. وكان يعرف من هو عمر ويعرف أن دهاءه و قوة استطلاعه لن تأتي بالمطلوب مع هذا الرجل فهو القائل : لست بالخب ولا الخب يخدعني .. فآمن بذلك كل الدهاة الأربعة وأَمِنَ به كلّ مسلمٍ لا دهاءَ في شأنه ·

وقد قال المغيرة مرة لعمرو بن العاص معترفاً بقوة الفاروق وبدهائه" :أأنت تفعل أو توهم عمر شيئاً فيلقنه عنك !؟ (أي يأخذ به فوراً بغير تفكير) واللهِ ما رأيتُ عمرَ مستخلياً بأحد إلا رحمته كائناً من كان ذلك الرجل . كان عمر والله أعقل من أن يخدع وأفضل من أن يخدع "داهيتان يتحادثان فيما بينهما فيقران بأن دهاؤهما لا يشكّل خطرا على من هو أقوى وأذكى وأحوط منهم بما قد يقترفان .. وعلى ذكر الحيطة فقد تحدث الداهية المغيرة إلى الداهية الآخر معاوية في إحدى السنوات عندما استشاره معاوية قائلاً له :

أأولّي عمرو بن العاص أمر الكوفة !؟ .. فقال له المغيرة : يا أمير المؤمنين, تؤمِّرُ عمرواً على الكوفة وابنه على مصر وتكون كالقاعد بين فكي الأسد!؟ ، قال: ما ترى ؟ قال : أنا أكفيك الكوفة. فولي الكوفة لمعاوية إلى وفاته.

غير أن الأعجب من ذلك أنه في عام 21 للهجرة , تولّى المغيرة أمر البحرين, وفي عام 21 نفسه تولّى معاوية أمر الشام, وفي ذات العام 21 إستقرت مصر في يد عمرو بن العاص بعد سقوط الإسكندرية ،فكان عمر بن الخطاب محاطاً بثلاثة من أدهى دهاة العرب الأربع؛ فالأول عن شرقِه والثاني عن غربِه و ثالثهما الآخِرُ من الشمال .. وكانوا كثلاثة أثافي حول عمر بن الخطاب ولم يجرؤ أحداً منهم على فعلِ ما يكرهُ الفاروق .. بل كانوا على أتمِّ الحذر وأشدَّ الستر, ولا نقول ذلك إستصغارا لشأنهم فهم جمع من صحابة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام, ومن خيرِ رجال الأمة وكانوا على علم وتقوى وذكرٍ حسن فرضي الله عنهم أجمعين.. لكن دهاءهم لم يأتِ ثمارَه عند منَ " لا يخدعه الخِبُّ "

إسلام عمرو بن العاص

عمرو بن العاص رضي الله عنه: { يا عمرو بايع فإن الإسلام يجبُّ ما كان قبله }.

حديث شريف كان عمرو بن العاص أحد ثلاثة في قريش أتعبوا الرسول –صلى الله عليه وسلم– بعنف مقاومتهم وإيذائهم لأصحابه، وراح الرسول يدعو عليهم ويبتهل لينزل العقاب بهم فنزل الوحي بقوله تعالى.

" لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمرِ مِنْ شيء أَوْ يتوبَ عليهم أو يُعَذِّبهم فإنهم ظالمون " وكف الرسول الكريم عن الدعاء عليهم وترك أمرهم الى الله، واختار الله لعمرو بن العاص طريق التوبة والرحمة، فأسلم وأصبح مسلم مناضل وقائد فذ..

إسلامه:

أسلم عمرو بن العاص -رضي الله عنه- مع (خالد بن الوليد) قُبيل فتح مكة بقليل { شهر صفر سنة ثمان للهجرة } وبدأ إسلامه على يد النجاشي بالحبشة ففي زيارته الأخيرة للحبشة جاء ذكر النبي الجديد ودعوته وما يدعو له من مكارم الأخلاق، وسأل النجاشي عمرا كيف لم يؤمن به ويتبعه وهو رسول الله حقاً، فسأل عمرو النجاشي: { أهو كذلك ؟}.

وأجابه النجاشي: { نعم، فأطِعْني يا عمرو واتبعه، فإنه والله لعلى الحق، ولَيَظْهَرنّ على من خالفه }.

وركب عمرو من فوره عائدا لبلاده ومتجها الى المدينة ليسلم لله رب العالمين، وفي طريق المدينة التقى { خالد بن الوليد } الساعي الى الرسول ليعلن إسلامه أيضا، وما كاد الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن يراهم حتى تهلل وجهه و قال لأصحابه: { لقد رمتْكم مكة بفَلَذات أكبادها }.

وتقدم خالد فبايع، وتقدم عمرو فقال: { إني أبايعك على أن يغفر الله لي ما تقدّم من ذنبي }.

فأجابه الرسول الكريم: { يا عمرو بايع.

فإن الإسلام يجبُّ ما كان قبله }.

وبايع عمرو ووضع كل ما يملك في خدمة الدين الجديد.

فضله كان فزعٌ بالمدينة فأتى عمرو بن العاص على سالم مولى أبي حذيفة وهو محتَبٍ بحمائل سيفه، فأخذ عمرو سيفه فاحتبى بحمائله، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: { يا أيها الناس ! ألا كان مفزعكم إلى الله وإلى رسوله }.

ثم قال: { ألا فعلتم كما فَعل هذان الرجلان المؤمنان }.

عمرو بن العاص قائداً حربياً

اوصافه

كان قصير القامة، قوي البنية، مرن الأعضاء تعود جسمه احتمال المشقة، وقد ساعده ذلك على أن يبرز في أفانين الفروسية والضرب بالسيف .كان عريض الصدر واسع ما بين المنكبين، له عينان ثاقبتان سريعتا التأثر بحالته سواء كان غاضبا أو فرحا، وفوقهما حاجبان غزيران، وكان أدعج (شديد سواد العين) أبلج (أبيض ما بين الحاجبين)، ودون ذلك فم واسع، كان يخضب لحيته بالسواد، وافر الهامة، وجهه ينم عن القوة من غير شدة وتلوح عليه لائحة البشر والأنس. كان خطيبا بليغا محبا للشعر ويطرب له .

سرية ذات السلاسل

كانت أولى المهام التي أسندت إليه عقب إسلامه، حينما أرسله رسول الله "صلى الله عليه وسلم "ليفرق جمعا لقضاعة يريدون غزو المدينة المنورة، فسار عمرو على سرية "ذات السلاسل" في ثلاثمائة مجاهد،

ولكن الأعداء كانوا أكثر عددا، فقام رسول الله "صلى الله عليه وسلم "بإمداده بمائتين من المهاجرين والأنصار برئاسة أبي عبيدة بن الجراح وفيهم أبو بكر وعمر، وأصر عمرو أن يبقى رئيسا على الجميع فقبل أبو عبيدة، وكتب الله النصر لجيش المسلمينبقيادة عمرو بن العاص وفر الأعداء ورفض عمرو أن يتبعهم المسلمون، كما رفض حين باتوا ليلتهم هناك أن يوقدوا نارا للتدفئة، وقد برر هذا الموقف بعد ذلك للرسول حين سأله أنه قال: " كرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مدد فيعطفوا عليهم، وكرهت أن يوقدوا نارا فيرى عدوهم قلتهم "، فحمد الرسول الكريم حسن تدبيره.

بعد وفاة الرسول "صلى الله عليه وسلم "وفي خلافة أبي بكر، قام بتوليته أميرا على واحد من الجيوش الأربعة التي اتجهت إلى بلاد الشام لفتحها، فانطلق عمرو بن العاص إلى فلسطين على رأس ثلاثة آلاف مجاهد، ثم وصله مدد آخر فأصبح عدد جيشه سبعة آلاف مجاهد، وشارك في معركة اليرموك مع باقي الجيوش الإسلامية وذلك عقب وصول خالد بن الوليد من العراق بعد أن تغلب على جيوش الفرس،

وبناء على اقتراح خالد بن الوليد تم توحيد الجيوش معا على أن يتولى كل قائد قيادة الجيش يوما من أيام المعركة، وبالفعل تمكنت الجيوش المسلمة من هزيمة جيش الروم في معركة اليرموك تحت قيادة خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم وتم فتح بلاد الشام، انتقل بعد ذلك عمرو بن العاص ليكمل مهامه في مدن فلسطين ففتح منها غزة، سبسطية، ونابلس ويبني وعمواس وبيت جيرين ويافا ورفح.

كان عمر بن الخطاب إذا ذكر أمامه حصار بيت المقدس وما أبدى فيه عمرو بن العاص من براعة يقول: لقد رمينا" أرطبون الروم" "بأرطبون العرب."

الفتوحات الإسلامية مطلب ديني أم دنيوي؟

من المؤكد أنه ليس في الفتوحات الإسلامية مطلب دنيوي على الإطلاق، بل على العكس، ينفق المسلمون أرواحهم وأموالهم ليصلوا بدعوة الله إلى الناس. والدليل على أنه لا مطلب دنيوي أنه إذا آمن قوم احتفظوا بكل ما يملكون.

بل انظر إلى جواب زهرة بن الحوية عندما عرض عليه رستم الذهب والكساء قبيل القادسية، قائلاً له: "انصرف وقومك ولكم منا جعل". فقال زهرة: "إنا لم نأتكم بطلب الدنيا، إنما طِلْبتُنا وهمتنا الآخرة". وانظر أيضًا إلى جواب المغيرة بن شعبة لرستم حين قال: "قد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم عليه إلا ضيق المعاش، وشدة الجهد، ونحن نعطيكم ما تشبعون به، ونصرفكم ببعض ما تحبون". فما كان من المغيرة إلا أن سخِرَ منه ومن رأيه ومن ماله، حيث صاح به بألا مناص من واحدة من ثلاث: الإسلام، أو الجزية، أو القتال.

فلو أراد الفاتحون مالاً دون نشر الدعوة والعقيدة، لرضوا بالمال دون دماء، ولحفظوا أرواحهم وعادوا بأموال تكفيهم بلا تعب ولا إرهاق، أو تيتيم أو ترمُّل. فمن ذا الذي يحمل رأسه على يده ويقاتل بها أقوى جيوش الدمار والفتك لينال من بذخ العيش؟!

وإذا نظرنا إلى التاريخ الإسلامي نجد أنه مملوء بقصص البطولات التي لا يمكن أن يسطرها إلا صاحب عقيدة مثلَى رسخت في فكره وقلبه، وملأت حياته، ولا تصدر هذه البطولات إلا من إنسان صار كالملَك، وصار يعلم لماذا يبذل الروح، وماذا يطلب بها، وهيهات أن تجد في أمة من أمم الأرض مثل هذه البطولات} وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ]{الحشر: 21].

ففي القادسية: خرج رجل فارسي من أهل فارس ينادي من يبارز؟ فبرز له علباء بن جحش العجلي، فضربه علباء فأصاب رئته، وضرب الفارسي علباء فأصاب أمعاءه، مات الفارسي من ساعته، أما علباء فخَّر على الأرض فلم يستطع القيام، فعالج إدخال أمعائه فلم يتأتَّ له، حتى مرَّ به رجل من المسلمين فقال: يا هذا، أعني على بطني؟ فأدخله له، فأخذ علباء جلد بطنه ثم زحف باتجاه عدوه من الفرس ما يلتفت إلى المسلمين، فأدركه الموت على رأس ثلاثين ذراعا من مصرعه إلى صف الفرس!!

وفي اليرموك : كم من مناد يصيح قائلاً: من يبايع على الموت؟! لا على الغنيمة، فتفكر.

وقال ورقة بن مهلهل التنوخي – وكان صاحب راية أبي عبيدة في اليرموك –: "كان من أوائل من افتتحوا الحرب غلام من الأزد، وكان حدثا كيِّسا، قال لأبي عبيدة: أيها الأمير، إني أردت أن أشفي قلبي، وأجاهد عدوي وعدو الإسلام، وأبذل نفسي في سبيل الله تعالى لعلِّي أُرزَق الشهادة، فهل تأذن لي في ذلك؟ وإن كان لك حاجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرني بها!!"

هذا يمثل فتية الإسلام فكيف برجالاته ؟! إنهم يبتغون نشر دعوة أو شهادة.

وفي نهاوند "فتح الفتوح": لنرَ ماذا قال النعمان بن مقرن المزني قبل بدء المعركة، لقد قال: "اللهم أعزز دينك، وانصر عبادك، واجعل النعمان أول شهيد اليوم. اللهم إني أسألك أن تقر عيني اليوم بفتحٍ يكون فيه عز الإسلام. أَمِّنوا يرحمكم الله!!"

والبطولات في هذا الميدان أعظم من أن تحصى، ومع كل ذلك فنحن لا نُكرِه أحدًا أبدًا على الإسلام، ومحال أن تجد في التاريخ حادثة واحدة تدل على ذلك، بينما تجد العكس في كثير من دول العالم في القديم والحديث: روسيا والصين، وقبل ذلك في محاكم التفتيش.

في كل فتوحات الإسلام ما دُنِّسَ إنجيلٌ ولا توراةٌ، وما سبَّ نبيٌّ، بل نرفع كل الأنبياء فوق كل البشر} لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ] {البقرة:285.[

غير المسلمين في الدولة الإسلامية

على أن الذي يعيش على غير الإسلام في دولة إسلامية فإنها تحترم حقوقه تمام الاحترام، ولا يجوز ظلمه بأي حال من الأحوال، وأمثلة ذلك في التاريخ لا تحصى.

فمن حقهم الملكية، والعبادة الشخصية، وأَكْل ما يشتهون، وشُرب ما يريدون، ومن حقهم العمل بالوظائف المختلفة، ولا يظلَمون أبداً، وقد قال رسول الله" :ﷺ أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهَدًا، أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ."

أما بالنسبة للجزية فنجد أنها أقل بكثير مما كانوا يدفعونه من ضرائب، سواء للرومان أو للفرس أو غيرهما؛ فالجزية لا تؤخذ على النساء، ولا الأطفال، ولا الشيوخ، ولا المرضى، ولا المعتكفين للعبادة، وإنما تؤخذ فقط من القادرين على القتال وحمل السلاح،

وهي تؤخذ في مقابل الدفاع، وإذا عجز المسلمون عن الدفاع عنهم ردَّتْ إليهم جزيتُهم، كما حدث مع أهل حمص، ولكن إذا قُورِن بين الجزية والزكاة نجد أن الأرخص له أن لا يظل كافرا!!

والحقيقة أن الفارق عظيم وهائل بين المناهج السماوية والمناهج الأرضية، فهل سمعتم بشعوب كاملة تدخل في دين المحتل إلا مع الإسلام؟

فلماذا يحدث ذلك؟ والجواب ببساطة: لأن المنهج مقنع، ولا يقارن بالمرة!

وتراهم يقولون: الحل العسكري حلٌّ رجعي.

والحقيقة أنه في كثيرٍ من الأحيان يكون الحل العسكري حلاً واقعيًّا، فكم نتمنى أن تسمح الدول بالدعوة دون مقاومة، ولكنهم لا يفعلون.

ثم إن ما فعلته كل الدول الاستعمارية في الدول المحتلة، أليس ذلك حلاً عسكريًّا، سواء في القديم أو الآن؟! أليس هناك دول إسلامية محتلة؟! أَحلال على الدول المحتلة أن تنشر إباحيتها بالقوة، ويحرم على المسلمين أن ينشروا فضيلتهم؟} !إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ عُجَابٌ] {ص:5.[

أحوال مصر الاقتصادية والسياسية والدينية

قبل فتح عمرو بن العاص

الأحوال الاقتصادية

لقد أبقى الرومان في مصر حامية رومانية من ثلاثين ألفاً، عبارة عن ثلاث فرق، وقوات مساعدة، أخضعت البلاد وأخمدت ثوراتها، وأحالتها إلى مزرعة تمد الإمبراطورية الرومانية بالمال والغلال، لا سيما القمح، حتى إن الإمبراطور تيبريوس عَنَّفَ حاكما أرسل إليه حاصل الضرائب زائداً عن النصاب السنوي وقال له: "إنه إنما ولِي على مصر ليجزَّ وبرها لا ليسلخ جلدها!"

ولا خلاف في أن روما كانت تنظر إلى مصر على أنها بقرة حلوب دأبت على استنزاف لبنها، فلم يكن كل قياصرة روما مثل تيبريوس، ومع ذلك كان من رأيه أن يجز وبرها، وأصبحت مصر مستعمرة بمعنى الكلمة، وعاملت روما شعب مصر على أنه شعب مغلوب مقهور،

ومنحت اليونانيين واليهود امتيازات خاصة في مصر، وحظر على المصريين حمل السلاح وصارت حيازته عقوبتها الإعدام، واتسم الحكم الروماني بفداحة الضرائب والعسف في الجباية، وعاش المصريون قرونًا ضنكًا، حتى خربت البلاد اقتصاديًّا واجتماعيًّا.

وقد كتب المؤرخ اليهودي فيلون philon فقال: إن جباة الضرائب كانوا يستولون على جثة العاجزين عن سداد الضرائب حتى يكرِهوا ذوي قرباه على دفع الضرائب المتأخرة عليه؛ استنقاذًا لجثته، كما ذكر أن الزوجات والأطفال وغيرهم من الأقرباء كانوا يحشرون إلى السجون، ويصبُّ عليهم التعذيب حتى يصل الرومان إلى المفلس الهارب، فكان يحدث أن يهرب الأهالي من مدن برمتها!

وكانت جباية الضرائب تَطْرح في مزاد عام يرسو على من يلتزم بتوريد أكثر، ثم تطلق أيديهم في تحصيل ما يشاءون بأبشع الوسائل، حتى تناقص عدد السكان، وظهرت المسئولية الجماعية بِمضي الزمن،

فإذا اختفي أحد دافعي الضرائب وقعت مسئولية سدادها على زملائه، ووقع واجب فلاحة أرضه على الآخرين، وبلغ الحال أن امتنع الملتزمون عن التقدم لهذا العمل، فكانت السلطة تكرههم على ذلك، وصار أولئك الذين كان من واجبهم ترشيح هؤلاء ضامنين مسئولين عما ينشأ من عجز!!

وهكذا عاشت مصر اقتصاديًّا، وهذه كانت صورتها لمدة سبعة قرون منذ انتحار كليوباترا عام (30 ق.م) حتى أنقذها الفتح الإسلامي بقيادة عمرو بن العاص (640 – 642م.(

وقد كان من الطبيعي أن تحدث ثورات على هذا الوضع، فقد نشبت ثورة في طيبة بعد بضعة شهور من الغزو الروماني، ونكّل الثوار بجباة الضرائب الرومان، وزحف إليهم الحاكم الروماني جالوس من الإسكندرية حتى أسوان وما وراء الشلال الأول، فأخمد الثورة ونكّل بالثائرين، وتكررت الثورات في الصعيد، وفي شمال شرق الدلتا وكان الرومان يخمدونها.

ويبدو أن الأمر كان صعبا على الرومان في بعض الأحيان، فعقدوا صلحا مع النوبيين، أعفوهم فيه من دفع الجزية، وأقام الرومان حصونا في النوبة: في الدكة وكلابشة وقرطاسة وأبريم؛ لتعينهم على أمرهم، كما جدَّد الإمبراطور تراجان (98 – 117م) بناء حصن بابليون ليكون المقر الرئيسي للحامية الرومانية في داخل البلاد.

وقد اتخذ الرومان مصر شاة حلوبا يريدون أن يستنزفوا مواردها ويمتصوا دمها، يقول ألفرد: "إن الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس وضرائب أخرى كثيرة العدد... مما لا شك فيه أن ضرائب الروم كانت فوق الطاقة، وكانت تجري بين الناس على غير عدل". ويقول مؤلفو (تاريخ العالم للمؤرخين): "إن مصر كانت تضيف إلى مالية الدولة البيزنطية مجموعا كبيرا من حاصلها ومنتجاتها، وكانت طبقات الفلاحة المصرية – مع حرمانها من كل قوة سياسية ومن كل نفوذ –مرغمةً على أداء الخراج للدولة الرومية، ككراء الأرض فضلاً عن الضرائب، وكانت ثروة مصر في هذا العهد إلى الانتقاص والانحطاط."

الأحوال السياسية

كانت مصر ولاية رومانية تابعة مباشرة لروما منذ عام 31 ق.م، حين استولى الرومان عليها وقضوا على حكم البطالسة فيها، واتخذها الإمبراطور أغسطس قيصر مخزناً يمد روما بحاجتها من الغلال.

اتصف الحكم الروماني لمصر بالتعسف، فقد برع الرومان في ابتكار الوسائل التي تتيح لهم استغلال موارد البلاد، ففرضوا على المصريين نظما ضريبية متعسفة شملت الأشخاص والأشياء والصناعات والماشية والأراضي، فضاق المصريون بها ذَرعا، وقاموا بعدة ثورات ضد الحكم الروماني، لعل أشهرها تلك التي قامت في عهد الإمبراطور ماركوس أورليوس (161 – 180 م)، وتعرف بحرب الزراع أو الحرب البوكولية، ولكن الرومان كانوا يقضون على هذه الثورات في كل مرة.

ظلت مصر تحت الحكم الروماني ما يزيد عن ستة قرون، وفي عام 395م انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين: شرقي وغربي، وعلى الرغم من استمرار فكرة الإمبراطورية، فقد حكم إمبراطوران معا، واحد في الشرق وآخر في الغرب، وفي عام 476م سقط القسم الغربي في أيدي البرابرة الجرمان، في حين نجا القسم الشرقي الذي عرِف بالإمبراطورية البيزنطية، وعاصمته القسطنطينية.

وكان شمالي إفريقية – ومن ضمنه مصر – تابع لهذه الإمبراطورية من خلال ما كان يعرف بأرخونية إفريقية، إلا أنها بظروفها السياسية والدينية تُعدُّ امتدادا طبيعيًّا لبلاد الشام مع بعض الاختلاف في المدى الذي ترتبط به بالحكم المركزي في القسطنطينية؛ فقد وحدت بينهما العقيدة النصرانية، ولكن وفقًا لمفهوم لا يتفق كثيرا مع المذهب الإمبراطوري الملكاني.

ومن ناحية أخرى، كان الحكم البيزنطي مباشرا ومستبدًّا، يدار بواسطة حاكم يعينه الإمبراطور، لكن الحضور السياسي كان ضعيفاً، مما أدى إلى انعدام التوازن في العلاقة بين الحكم المركزي والشعب المصري، وكان المظهر الوحيد للسيادة المركزية والإدارية التي تؤَمِن مصالح الدولة الحاكمة، هو وجود مراكز عسكرية في المدن الكبرى، وبعض الحاميات المنتشرة في الداخل.

وكانت مصر بوصفها مرتبطة مباشرة بالحكم المركزي تتأثر بما كان يحدث في البلاط البيزنطي من صراعات ومؤامرات من أجل السلطة؛ فتَعرَّض المصريون لأشد أنواع المضايقات في عهد الإمبراطور فوقاس (602 –610م)، فما اشتُهِر به عهدُه من المؤامرات والاغتيالات، إنما حدد الإطار الخارجي الذي جرى في نطاقه من العوامل ما أَدَّى إلى انتشار الفوضى والتفكك البطيء في الحكومة والمجتمع،

وقد تأثرت مصر بذلك، فامتلأت أرض الصعيد بعصابات اللصوص وقطاع الطرق، وغزاها البدو وأهل النوبة، واضطربت أوضاع مصر السفلى أيضا وأضحت ميدانا للشغب والفتن والثورات بين الطوائف، أوشكت أن تكون حربا أهلية. وانصرف الحكام إلى جمع المال لخزينة الإمبراطورية، بِغَضِّ النظر عن مشروعية الوسائل أو عدم مشروعيتها، فاضطرمت مصر بنار الثورة.

وتعرضت الإمبراطورية في هذه الأثناء إلى كارثة خطيرة، إذ هَزِمتْ عسكريًّا في البلقان وآسيا الصغرى وبلاد الشام، واجتاحتها الجيوش الفارسية، ثم شرع الفرس يغزون مصر.

كسرى أبرويز

وفي أيام فوقا (فوكاس) (602 – 610م) ملك الروم، بعث كسرى أبرويز ملك فارس جيوشه إلى بلاد الشام ومصر، فخربوا كنائس القدس وفلسطين وعامة بلاد الشام، وقتلوا النصارى بأجمعهم، وأتوا إلى مصر في طلبهم فقتلوا منهم أمة كبيرة، وسبوا منهم سبيا لا يدخل تحت حصر، وساعدهم اليهود في محاربة النصارى وتخريب كنائسهم.

وفي أيام "فوكاس" أُقيم يوحنا الرحوم بطرك الإسكندرية فدبَّر أرض مصر كلها عشر سنين، ومات بقبرص وهو فارٌّ من الفرس، فخلا كرسي الإسكندرية من البطركية سبع سنين لخلو أرض مصر والشام من الروم، واختفى من بقي بها من النصارى خوفاً من الفرس. وكان غزو الفرس للإسكندرية عام 617م، وتم لهم إخضاع مصر عام 618م، وبلغوا أقاصي الصعيد حتى أسوان، وبقي سلطانهم في مصر حوالي عشر سنوات.

وعندما ملك هرقل (610 – 641م) الروم بالقسطنطينية تغلب على الفرس وغزا عاصمتهم المدائن، وأجبرهم على الانسحاب من جميع الأراضي التي استولوا عليها من آسيا الصغرى وبلاد الشام، وخرجوا من مصر عام 627م ، وهكذا عاد الروم إلى مصر في عهد هرقل.

والحقيقة أن تغلب الروم على الفرس كان أمرا متوقعا ولا يدعو إلى الدهشة بالنسبة للمسلمين، لماذا؟

لأن الله تعالى قد أخبر بذلك في كتابه الكريم؛ ففي أوائل الفترة المكية نزل القرآن الكريم بمقدمات سورة الروم وفيها} :الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ] {الروم:1–4[، وكان هذا إخبارا بما حدث من هزيمة الروم، وبما سيحدث من انتصارهم لاحقًا على الفرس.

وقد ذهب أبو بكر الصديق ﵁ يذكر ذلك للمشركين يغيظهم به، وقد كان المسلمون يفرحون لنصر الروم لأنهم أهل كتاب، بينما يفرح المشركون لنصر الفرس لأنهم وثنيون مثلهم، فقال أبو بكر الصديق :﵁ لَيَظْهَرَنَّ الروم على فارس، أخبرنا بذلك نبينا. فصاح به أُبي بن خلف قائلاً: كذبت يا أبا فضيل. فقال الصديق: أنت أكذب يا عدو الله. فقالوا: هل لك أن نقامرك؟ وذلك قبل تحريم المراهنة والمقامرة، فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين ومشت السبع سنين ولم يكن شيء؛ ففرح المشركون بذلك فشَقَّ على المسلمين، فذُكِرَ ذلك للنبي ﷺ فقال: "ما بضع سنين عندكم؟". فقالوا: دون العشر. قال: "اذهب فزايدهم سنتين في الأجل". قال: فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على الفرس.

الروم مرة أخرى:

خرج الفرس من مصر عام 627م، وعاد إليها الروم البيزنطيون، وفي عام 631م أرسل هرقل الأسقف سيروس Cyrus بطركًا للإسكندرية، وهو الذي ذكره المقريزي باسم "فيرس" وذكره غيره باسم "قيرس" وكان ملكاني المذهب، وإلى جوار أنه كان أسقفًا فقد كان نائبا عن هرقل في حكم مصر، وكانت الإسكندرية ما زالت هي عاصمة البلاد.

وصل "قيرس" إلى الإسكندرية، وبدأ اضطهاده للقبط ليحملهم على اتباع المذهب الملكاني الحكومي، فكان عليهم أن يختاروا بين مذهب خلقيدونية بنصه أو الجلد أو الموت، وبلغ السيل الزبي بقبط مصر، فلئن كان حكم الفرس مما لم يرغبوا فيه لِما كان معه من ظلم وجور، فإن حكم الرومان وبطشهم وعسفهم لم يكن مما يفرحون به ويحمدونه، فقد جاء "قيرس" ليحرمهم حرية العقيدة. وتتفق كلمة المؤرخين أن اضطهاد "قيرس" للقبط قد استمر عشر سنوات، بمعنى أنه استمر طول مدة ولايته.

النزاع والصراع بين المسيحيين حول طبيعة المسيح:

لم تتعم مصر المسيحية طويلاً بهذا النصر الذي أحرزه الدين المسيحي إذ ثار الجدل والنزاع منذ أيام قسطنطين الأول بين النصارى حول صفات المسيح، وقد تدخل قسطنطين الأول في هذه النزاعات الدينية البحتة، وعقد مجمع نيقية في عام 325م من أجل ذلك، وناقش هذا المجمع مذهب أريوس الإسكندري الذي أنكر صفة الشبه بين الأب والابن، وعدَّ أن ابن الله ليس إلا مخلوقاً فأنكر بذلك ألوهية المسيح، وتقرر بطلان مذهبه، والإعلان عن أن الابن من جوهر الأب نفسه، واتخذ معظم الأباطرة الذين جاءوا بعد قسطنطين الأول موقفاً عدائيًّا من معتقدات النصارى في مصر؛ مما أدى إلى احتدام الجدل والنزاع الديني بين كنيستي الإسكندرية والقسطنطينية.

وقد بلغ أقصاه في منتصف القرن الخامس الميلادي، حينما اختلفت الكنيستان حول طبيعة المسيح، فاعتقدت الكنيسة المصرية بأن للمسيح طبيعة إلهية واحدة – مونوفيزيت – وتبنَّت كنيسة القسطنطينية القول بثنائية الطبيعة المحددة في مجمع خلقيدونية، ورأت أن في المسيح طبيعة بشرية وطبيعة إلهية، وهو المذهب الرسمي للإمبراطور البيزنطي. وقد عقد الإمبراطور مرقيان (4550 – 457م) مجمعا دينيًّا في خلقيدونية في عام 451م من أجل وضع حد لهذا النزاع، تقرر فيه تحديد العقيدة الدينية المتعلقة بطبيعتي المسيح، وأنكر المجتمعون نحلة المونوفيزيتيين، وكفَّروا من قال بأن للمسيح طبيعة واحدة، وعدُّوهم خارجين عن الدين الصحيح، كما تقرر حرمان ديسقوروس بطريرك الإسكندرية من الكنيسة.

والواضح أن ما أحرزته كنيسة القسطنطينية من انتصار على كنيسة الإسكندرية إنما يدل على أن دعوى الكنيسة الأولى بأن لها الصدارة بين الكنائس الشرقية ومساواتها بالكنيسة الغربية في روما قد أضحى واقعا، واتخذت القضية في مصر شكلاً قوميًّا؛ إذ لم يقبل ديسقوروس ولا نصارى مصر ما أقره مجمع خلقيدونية، وأطلقوا على أنفسهم اسم الأرثوذكس أي أتباع الديانة الصحيحة،

وعُرِفَت الكنيسة اليعقوبية نسبة إلى يعقوب البرادعي أسقف الرها المونوفيزيتي الذي زار مصر في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ونظم كنيستها. أما أتباع كنيسة القسطنطينية فقد عَرِفُوا بعد الفتوحات الإسلامية باسم الملكانيين لاتباعهم مذهب الإمبراطور.

أضحى هذا النزاع بين الكنيستين مشكلة أقلقت المسئولين البيزنطيين، إذ إن المونوفيزيتية ليست إلا تعبيرا عما بمصر وبلاد الشام من ميول انفصالية، وكانت الأداة التي اتخذها النصارى في هذه الجهات لمناهضة الحكم البيزنطي، فألغت كنيسة الإسكندرية استخدام اللغة اليونانية في طقوسها وشعائرها، واستخدمت بدلاً منها اللغة المصرية القبطية.

وما حدث من القلاقل الدينية في الإسكندرية وبيت المقدس وأنطاكية، وتَعرُّض السكان في مصر لأشد أنواع الاضطهاد، وحرمان ديسقوروس وطرده من الكنيسة بسبب ما جرى من محاولة تنفيذ قرارات مجمع خلقيدونية بالقوة، إنما اتخذ صفة الثورات الوطنية العنيفة، ولم تقمعها السلطات إلا بعد أن أراقت دماء كثيرة.

وعندما استولى هرقل على الحكم، رأى أن ينقذ البلاد من الخلاف الديني، وأَمَّل المصريون بانتهاء عهود الاضطهادات وإراقة الدماء، ومن خلال البطريرك سرجيوس، الذي أدرك خطورة الموقف، لم يأْل جهداَ في أن يعيد للكنيسة الهدوء والسكينة؛ ذلك أنه اعتقد بقدرته على التوفيق بين المذهبين الخلقيدوني والمونوفيزتي، فتبنى مذهب الفعل الواحد في المسيح، وهي وحدة تعرب عن وحدة الأقنوم (الشخص) لا عن وحدة الطبيعة، وأسند الرئاسة الدينية والسياسية في مصر للمقوقس أسقف فاسيس في بلاد القوقاز، وطلب منه أن يحمل أهل مصر على اعتناق المذهب الموحد، غير أنه لم يدرك أن مذهبه هذا قد ترفضه كنيسة مصر، وهذا ما حصل.

اضْطُرَّ المقوقس للضغط على المصريين وخَيَّرهم بين أمرين: إما الدخول في مذهب هرقل الجديد، وإما الاضطهاد. وقبل أن يصل الحاكم الجديد إلى الإسكندرية في عام 631م هرب البطريرك القبطي بنيامين؛ توقعا لما سيحل به وبطائفته من الاضطهاد من جرَّاء فرض المذهب الجديد.

كان هذا القرار نذيرا أزعج الأقباط، وأفزع أهل الدين منهم، وخاصة أنه كان لهذا البطريرك مكانة محببة بين الأقباط في مصر، ولجأ المقوقس إلى البطش والتعذيب،

وقاسى الأقباط جميع أنواع الشدائد فيما سُمِّيَ (الاضطهاد الأعظم) الذي استمر عشر سنوات، مما كان له أثر في سهولة فتح المسلمين لمصر. [راجع في ذلك د/ طقوش: تاريخ الخلفاء الراشدين]

ويمكن حصر الخلاف المذهبي في هذين الاتجاهين:

-1 اتجاه يمثله الملكانيون (حزب الإمبراطورية البيزنطية): شعارهم ازدواج طبيعة واحدة؛ فالألوهية طبيعة وحدها، والناسوت طبيعة وحده، ويلعن أصحاب هذا المذهب ويضطهدون كل من خالفهم الرأي.

-2 اليعاقبة: وهم معظم أهل مصر من القبط، ويقولون بأن للمسيح طبيعة واحدة هي الألوهية، وفيها تكونت طبيعته البشرية، مثل: قطرة الخل تقع في بحر عميق لا قرار له، وكلا الفريقين كافر بالله، ضال عن الحق.

واحتدم الصراع بين أنصار مذهب اليعاقبة السائد في كثير من بلاد الإمبراطورية البيزنطية، وبين الإمبراطورية نفسها ذات المذهب المخالف، فعاقبت الإمبراطورية المخالفين لمذهبها كما أشرنا من قبل.

فتح عمرو بن العاص لمصر



بعد موافقة الخليفة عمر والمجلس العسكري على فتح مصر وخطة الفتح، تحرك الجيش الإسلامي بقيادة عمرة بن العاص ؓ وتحت قيادته دون أربعة الآلاف مقاتل معظمهم من الفرسان. سار عمرو بجيشه من قيسارِية، حتى إذا مرَّ بجبل الحلال قبل أن يبلغ العريش، وكانت تنزل به قبائل من راشدة ومن لخم انضمت إليه، فأصبحت قواته أربعة آلاف سار بهم إلى مصر.

وكان عمرو قد جاء من بلاد الشام في ثلاثة آلاف وخمسمائة من عك، ثلثهم من غافق، ثم صاروا أربعة آلاف بمن انضم إليهم من راشدة ولخم، وعلى ذلك يصير الجيش الذي سار مع عمرو لفتح مصر كالآتي:

1160 -من غافق (وغافق من عك؛ فهو غافق بن الشاهد بن عك)

2340 -من عك.

500 -من راشدة ولخم (وراشدة من لخم – راشدة بن مالك بن خالفة بن أد بن نمارة بن لخم)

توجه عمرو إلى العريش فأدركه عيد النحر (10 من ذي الحجة سنة 19هـ) كما ذكر ذلك البلاذري، فَضَحَّى عن أصحابه بكبش، وذلك اليوم كان يوافق 29 من نوفمبر 640م. وهنا وقع حادث بسيط ولكنه يكشف عن نفسية عمرو ونوعيته كقائد مسلم.

فقد هلك جمل لرجل ممن خرج معه من الشام، فجاء إلى عمرو ليجد له ما يركبه، وكانوا في البادية فقال له عمرو: تحمل مع أصحابك حتى تبلغ أول العامر. فلما بلغوا العريش عاد إليه الرجل فأمر له عمرو بجملين وقال له: "لن تزالوا بخير ما رحمتكم أئمتكم، فإذا لم يرحموكم هلكتم وهلكوا!!"

فكان عمرو يدرك مسئوليته عن أصحابه وعن ركائبهم، وأنه يهلك ويهلك أصحابه إن لم يرحمهم ويدبر لهم ما يحملهم عليه.

ولما بلغ المقوقس مجيء جيش المسلمين إلى مصر أرسل جيشًا لملاقاة عمرو، فتلاقيا على الفرما فكان أول قتال.

والفرما: مدينة من أقدم الرباطات المصرية بقرب الحدود الشرقية لمصر، وكانت في زمن الفراعنة حصن مصر من جهة الشرق؛ لأنها في طريق المغيرين على مصر اسماها القديم "بر آمون" أي: بيت الإله آمون، ومنه اسمها العبري "برمون"، والقبطي "برما"، ومن هذا أتى الاسم العربي وهو الفرما، وسماها الروم: "بيلوز"، ومعناها الوحلة؛ لأنها كانت واقعة في منطقة من الأوحال بسبب تغطية مياه البحر الأبيض لأراضي تلك المنطقة، وكانت الفرما تستقي الماء قديما من الفرع البيلوزي للنيل، وقد اندثرت هذه المدينة وتعرف اليوم آثارها بتل الفرما، على بعد ثلاثة كيلو مترات من ساحل البحر الأبيض المتوسط، وعلى بعد 23 كيلو مترا شرقي محطة الطينة الواقعة على السكك الحديدية التي بين بورسعيد والإسماعيلية.

فتح الفرما.. تحليلٌ وردٌّ

في تقدير بتلر أن فتح الفرما كان في منتصف يناير 640م، وينتقد "سيروس" إذ لم يرسل عشرة آلاف من الروم ليهزموا الفئة القليلة من العرب بين العريش والفرما أو تحت حصن الفرما، ثم يخلص من ذلك أن سيروس بدأ خيانته للدولة بالاتفاق مع العرب وإعانتهم على دولته، وقال: ولسنا نجد غير هذا الرأي ما نفسر به مسلكه، ولا سيما ما وقع منه بعد ذلك.

وما ذهب إليه بتلر لم تذهب إليه أية رواية من الروايات العربية؛ فقد كان بتلر يريد أن يعزو نجاح المسلمين في الاستيلاء على مدينة الفرما لسبب رئيسي، هو خيانة المقوقس قيرس العظمى للدولة؛ لأنه قَصَّر في حقها حين لم يبادر بإرسال عشرة آلاف جندي إليها ليعوقوا مسيرة عمرو، واكتفوا بالمسلحة التي كانت ترابط فيها للدفاع عنها.

وقبل أن نتناول هذا الكلام بالرد والتفنيد نقول بادئ ذي بدء: إن الغرض المفهوم والمقصود من منطق بتلر هو تجريد الفتح الإسلامي من مزية نصر استحقه بعد كفاح مرير استمر شهرا أو شهرين. وفي معرض الإنصاف يقتضينا الواقع أن نقول: إن مساحة المدينة الرومانية كانت تحتمي بأسوارها وتتحصن بحصونها، ولو كانت قيادتها تعلم أنهم أقل عددا من المسلمين وأضعف استعدادا ما فكروا ولو للحظة واحدة في التخلي عن مزاياهم الحربية، والخروج للقاء المسلمين في ساحة تَعرف فيها أقدار الجيوش وأوزان الرجال. وما ذكرناه قبل يدل على وقوع قتال بين الطرفين، بل إن الكندي يقول: فتقدم عمرو إلى الفرما وبها جموع فقاتلهم فهزمهم. أما ما نرد به على ألفرد بتلر فيتلخص في نقطتين:

الأولى: أن القيادة الرومانية كانت تعلم بيقين أن المسلمين في الطريق إلى مصر بعد أن خلص لهم الشام، كما يقول بتلر نفسه (ص 188)، ولذلك فقد كانت خطتهم في مواجهة هذا الزحف الذي أدركوا خطورته في حروب الشام المريرة أن يبذلوا أقصى الطاقة في حشد الجنود وإعدادها؛

انتظارا وترقبا لملاقاة جيوش المسلمين، وكان من أنسب المواقع لهذه الخطة حصن بابليون؛ لقوته وبُعده عن مراكز تجمع المسلمين، ولاتصاله وقربه من العاصمة الإسكندرية والمواقع الأخرى التي كانت موزعة على اتساع مصر السفلى (الوجه البحري)

وهو تفكير صائب من جهة أن المسلمين كان عليهم لكي يصلوا إلى بابليون أن يقطعوا مسافة غير قصيرة، سوف تستنزف بعض قوتهم في مواقع متقدمة محصنة ومسلحة بالجند المستعدين للقتال، وهذه الخطة تستلزم بالضرورة عدم التفريط في عشرة آلاف جندي يرسلون إلى الفرما في ظروف كانت غير مأمونة، وربما لنتيجة غير مضمونة.

الثانية: أن بتلر نفسه يؤكد أن إرسال عشرة آلاف جندي روماني إلى الفرما لو حدث لما حال بين المسلمين وبين فتح هذه البلاد أمداً طويلاً. وواضح أنه بهذا القول الذي لا لبس فيه يدافع من حيث لا يدري عن المقوقس والقيادة العسكرية الرومانية في مصر؛

لأنهم لم يستدرجوا إلى الفرما، وبالتالي لم يكن في تصرفاتهم أثناء زحف المسلمين على مصر، ذلك الخطأ المزعوم الذي رتَّب عليه بتلر زعما لا يقل الادعاء فيه عن سابقه – إن لم يفُقْه – ألا وهو الخيانة العظمى التي اقترفها المقوقس ضد إمبراطوريته التي أذن برحيلها عن مصر.

الفتوح بعد الفرما

كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح على ميمنة الجيش منذ خروجه من قَيسارِية إلى أن فرغ من حربه حتى تمام فتح مصر، ولا بد أن الروم البيزنطيين كانوا يتوقعون هذا الغزو بعد أن ضاعت منهم الشام، وصار من غير المقصود أن ينصرف المسلمون عن أرض مصر، وكان أول قتال عند الفرما، وفي تقديرنا أنه بلغها حوالى 25 من صفر عام 20هـ/ 11 من فبراير 641 م، وكان بالفرما حصن للبيزنطيين فقاتلوه قتالاً شديدا نحوا من شهر حتى فتحها، وكانت حامية الفرما البيزنطية مستعدة للقتال فحاربهم عمرو وهزمهم وحوى عسكرهم.

ثم سار من الفرما لا يدافَع إلا بالأمر الخفيف حتى نزل القواصر، وهي مسافة تزيد بعض الشيء عن 100 كيلو متر، تحتاج في قطعها إلى ثلاثة أيام، فيكون قد بلغها حوالي 9 من ربيع الآخر 20 هـ/ 26 من مارس 641م ولا بد إن كان عمرو قد حدد من قبل وجهته على أرض مصر أن يكون هدفه الأساسي هو مدينة الإسكندرية التي زارها من قبل في الجاهلية؛ فهي عاصمة البلاد، وتتصل بالقسطنطينية بحرا وبكافة موانئ الدولة على بحر الروم، وهي أكبر حاضرة في مصر منذ بناها الإسكندر الأكبر، ولكي يزول حكم الروم تماما عن مصر فإنه يتعين إخراجهم من كل شبر من أرضها، فكيف يكون طريقه إليها؟ لا بد أنه قد حدد مساره؛ هل يخترق أرض الدلتا بزروعها وأنهارها وفيض مائها، أو يدور حولها من جنوبها إلى غربها ويساير الصحراء حتى يصل إلى الإسكندرية؟

اختار عمرو الخيار الثاني، وهو الطبيعي والمنطقي، فالسير في الصحراء أفضل للعربي ودوابه من التورط بين الحقول وأوحالها، خاصة وقد كان الفصل شتاء، ولو أنه لا فيضان للنيل في هذا الفصل فإن احتمال سقوط الأمطار وارد،

هذا فضلاً عن تعدد فروع النيل وبحيرات شمال الدلتا. كما أن هذا الاختيار هو الضروري حربيًّا فإن هناك من حصون الروم ما لا بدَّ من تصفيته قبل الوصول إلى الإسكندرية؛ حتى لا يتركها مشحونة بالجنود وراء ظهره.

وقرر عمرو أن يكون هدفه الأول هو حصن بابليون؛ فهو أكبر هذه الحصون وأحصنها، ومكانه على الساحل الشرقي لنهر النيل، وموقعه الحالي بحي مصر القديمة من مدينة القاهرة، فهو بين دلتا النيل وصعيد مصر، وكانت الإسكندرية ذاتها قلعة يحيط بها سور حصين، كما كـ انت هناك حصون في أم دنين، ومكانها اليوم من مدينة القاهرة أيضا، (وأتريب) نواحي بنها، ومنوف ونقيوس وسخا وكريون، وفي الصعيد كانت حصون أخرى؛ فموقع حصن بابليون لم يكن عبثًا، وإنما كان عن اختيار حربي سديد.

سار عمرو من القواصر لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس (حوالي 45 كيلو مترا) مسيرة يوم، فقاتل حاميتها نحوا من شهر، حتى فتح الله عليه حوالي 9 من شهر جمادى الأولى 20هـ/ 24 أبريل 641هـ.

ثم سار لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أم دنين (مسافة 70 كيلو مترا) مسيرة يومين، فقاتل الروم بها قتالاً شديدا، وأبطأ عليه الفتح فكتب إلى عمر بن الخطاب يستمده، فأمده بأربعة آلاف لاستكمال الفتح.

يقول ساويرس بن المقفع عن المسلمين: وكانت أُمَّة محبَّة للبرية؛ فأخذوا الجبل حتى وصلوا إلى قصر (حصن) مبني بالحجارة بين الصعيد والريف يسمى بابليون، فضربوا خيامهم هناك حتى ترتبوا لمقاتلة الروم ومحاربتهم.

بطبيعة الحال بلغ المقوقس –وهو حاكم مصر من قبل الدولة البيزنطية وكان مقره بالإسكندرية– قدوم عمرو بن العاص بجيشه، وكان يتابعه وهو يتحرك على أرض مصر، فتوجه من الإسكندرية إلى حصن بابليون لملاقاة المسلمين، وكان على الحصن قائد من الرومان عرِف بالأعيرج وقيل الأعرج. ويبدو أن هذه صفة له ولم تكن اسما بالمعنى الصحيح، وكما جاء الخبر إلى المقوقس سيروس كذلك جاء خبر قدوم عمرو بجيش من المسلمين إلى البطرك بنيامين المختفي في صعيد مصر، فكتب إلى القبط على أرض مصر يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة، وأن ملكهم قد انقطع، ويأمرهم باستقبال عمرو!!

ولا بد أن البطرك بنيامين قد علم بانتصار المسلمين من الإنجيل، كما علم بانتصارات المسلمين على الفرس بالعراق وعلى الروم ببلاد الشام، وتراجع هرقل إلى عاصمته، كما كان بنيامين مطلوبا من الروم لإعدامه كما أعدموا أخاه مينا، وصبوا عذابهم على قبط مصر، ولعله أيضا أن يكون قد علم بمعاملة المسلمين لأهل العراق والشام، فليس غريبا – بل منطقيًّا – أن ينحاز بالقبط إلى جانب المسلمين.

معركة عين شمس:

(الاثنين 1 من شهر جمادى الأولى 20 هـ/ 30 من إبريل 641م)

لقد ذكر حنا النقيوسي معركة على جانب من الأهمية ولم يذكرها الرواة المسلمون، فقد جاء جيش المسلمين إلى تندونياس) Tenauniass أم دنين) وأرسى إلى النهر، وأن عمرو بن العاص أرسل إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما يطلب المدد فجاءه أربعة آلاف، وقَسَّم عمرو بن العاص ﷺ قواته إلى ثلاث فرق:

1–فرقة بالقرب من تندونياس.

2–الثانية إلى الشمال من بابليون.

3– والثالثة قريبا من مدينة "أون"، وهي عين شمس (هليوبوليس.(

وأن الروم لم يفطنوا إلى ما فعله عمرو بن العاص، فسار جيشهم من بابليون نحو جيش المسلمين، وبدأ الالتحام بناحية عين شمس، ثم انقضت قوات المسلمين بأعداد كبيرة من "تندويناس" من الفريق الثاني وتدفقت عليهم من ورائهم بأعداد كبيرة، فهربت قوات الروم نحو السفن، وسقطت ت ندونياس بيد المسلمين، فسحقوا حاميتها ولم ينج منها سوى 300 استطاعوا الفرار إلى الحصن وأغلقوا أبوابه، ثم غلب عليهم الخوف والحزن، ففروا بالسفن إلى نقيوس.

حصن بابليون:

كان الحصن على الساحل الشرقي لنهر النيل على الطريق بين منف وهليوبوليس، وما زالت له بقايا بمصر القديمة من أحياء القاهرة، وليس هناك رأي مؤكد عن تاريخ بناء الحصن، ولكن على الرغم من قدمه وأهمية موقعه فلا نكاد نجد له ذكرا مع أحداث التاريخ سوى ما كان في أيام الفتح الإسلامي.

وكان موقع الحصن على النيل يوفر له الماء، كما كان يتصل من خلفه بالسفن، وكان له باب يفتح على أرصفة رسوها، وكان تجاه الحصن تحصينات أخرى في الجزيرة (الروضة) على الشاطئ المقابل من النيل، وكانت مدينة بابليون تمتد جنوب الحصن، أما شماله فكانت حدائق للكروم، كما كانت هناك مزارع إلى الشرق بينه وبين جبل المقطم.

أما مبنى الحصن فكان من خمسة طبقات من الحجر الجيري، بارتفاع ثلاثة أقدام، يعلوها طبقات من الحجر بارتفاع قدم واحد، فكل طبقتين معا حوالي 4 أقدام، ثم يتكرر هذا النسق من القاعدة إلى القمة.

وكان من ضمن أسوار الحصن أبراج تتخلل أضلاعه الشمالية والشرقية والجنوبية، طول البرج 2.10 مترا، وعرضه 7.6 مترا، وفي كل طابق خمس نوافذ بعرض 1.4 مترا في الطابقين الأول والثاني، و 0.7 مترا في الطابق الثالث، أما الأبراج الجنوبية فكان بها سبع نوافذ، وكان الضلع الغربي يمتد على النيل وبه صرحان مستديران مرتفعان يكشفان من جبل المقطم شرقاً إلى الجيزة والأهرام والصحراء غربا، وحتى مسلة عين شمس شمالاً، وكان قطر كل منهما نحوا من 30 مترا مطلة على النهر، وكانت أسوار الحصن ترتفع إلى نحو 18 مترا. أما سمك جدار السور فقد ذكر بتلر أن آثاره تدل على أنه كان ثمانية عشر قدما (5.5 مترا)، وكان ارتفاع النوافذ في الطابق الأوسط ثلاثة أمتار، أما في الأعلى فكان مترا ونصف، ويعلو كل نافذة عقد مقوس.

وكان له باب كبير بين الصرحين، وباب آخر في الضلع الجنوبي الغربي يفتح على درج يهبط إلى مرساه على النيل من الحديد، يدلى من أعلى خلال مجريين بالجدران، ويسلك منه طريق بطول الحصن حتى الباب بالضلع الشمالي الشرقي، وكان الحصن على مستوى من الأرض يعلو ما حوله، كما كان حوله خندق وكانت مساحته حوالي عشرة أفدنة.

المسلمون أمام حصن بابليون

وصل عمرو بن العاص بجيشه حتى حصن بابليون، وكان الروم قد خندقوا حول حصنهم خندقًا وجعلوا له أبوابا، ونثروا بأفنية الأبواب سكك الحديد موانع للخيل والرجال، وكان الجيش الذي مع عمرو قليل العدد وأمامه حصن حصين، فكان يقسم أصحابه ليوهم الروم أنهم أكثر عددا، فلما بلغ خندقهم نادو ه من فوق الحصن: إنا قد رأينا ما صنعت، وإنما معك من أصحابك كذا وكذا. فلم يخطئوا برجل واحد.

توقف عمرو أمام الحصن يقاتل الروم قتالاً شديدا، وأبطأ الفتح فلم يحرز نصرا حاسما؛ فقد كان الروم يلوذون بحصنهم، وقد كان التفوق في تلك الاشتباكات للمسلمين لإزاحة الروم المسلمين عن حصنهم، وكتب عمرو إلى عمر رضي الله عنهما يخبره بالوضع ويستمده، فأمده عمر بأربعة آلاف، على كل ألف منهم رجل بمقام ألف، وهم الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، واختُلِفَ في الرابع فقيل: هو مَسْلَمَةُ بنُ مَخلَد، وقيل: خارِجَة بن حُذَافة العدوي، وذكر بعضهم أنه عمير بن وهب الجمحي.

وفي ذلك قال عمر لعمرو رضي الله عنهما: اعلم أن معك اثني عشر ألفاً، ولا يغلَب اثنا عشر ألفاً من قلة."

استمرار الحصار

أقام المسلمون أمام باب الحصن ستة أشهر، وقيل سبعة، وظل عمرو بن العاص ﷺ أياما يغدو في السَّحر يصف أصحابه على أفواه الخندق عليهم السلاح، وبينما هو على ذلك قدم الزبير بن العوام في المدد، وتلقاه عمرو ثم أقبلا يسيران معا، ولم يلبث الزبير ﷺ أن ركب وطاف بالخندق، ثم قسم الرجال حول الخندق. وجاء رجل إلى عمرو بن العاص ﷺ فقال: "اندب معي خيلاً حتى آتي من ورائهم عند القتال."

فأخرج معه خمسمائة فارس، فساروا من وراء الجبل حتى دخلوا مغار بني وائل –أو خليج بني وائل– قبيل الصبح، وكان الروم قد خندقوا خندقاً، وجعلوا له أبوابا، وبثوا في أفنيتها سكك الحديد، فالتقى القوم حين أصبحوا، وخرج اللخمي بمن معه من ورائهم فانهزموا حتى دخلوا الحصن، وفي رواية أن هذه القوة كان عليها خارجة بن حذافة.

وقد ذكر البلاذري: أن الزبير كان يقاتل من جهة وعمرو بن العاص من جهة -ولم يذكر أي جهة كان يتبع كل منهما- ثم إن الزبير أتى بسلم فصعد عليه حتى أوفى على الحصن.

وزاد ابن عبد الحكم: أن ذلك كان من ناحية سوق الحمام. ومر بنا سابقًا أن رجلاً طلب من عمرو بن العاص ﵁ أن يندب معه خيلاً حتى يأتي من وراء الروم عند القتال، ثم ساروا من وراء الجبل مما يعني أن جهة سوق الحمام كان في القطاع الذي تولاه الزبير بن العوام، وأن الدوران خلف الجبل كان في قطاع عمرو بن العاص، ويؤيد هذا أن شرحبيل بن حجيَّة المرادي نصب سلما آخر من جهة زقاق الزمامرة، ثم تنازع مع الزبير على باب أو مدخل، مما يدعم أنه لم يكن يتبعه، وأنه كان في قطاع عمرو بن العاص.

وبعبارة أخرى: إن الزبير كان شمال شرق الحصن، وعمرو في جنوب شرق الحصن. وعندما جاء المدد إلى عمرو بن العاص ﵁ شدد قتاله، وألح على القصر، ووضع عليه المنجنيق، ولم يلبث الزبير أن ركب ثم طاف بالخندق، وقسم الرجال حوله، وكانت قبيلة بَلِي تقف عن يمين راية عمرو بن العاص؛ لأن أم العاص بن وائل بلوية.

المفاوضات بين المسلمين والرومان

أرسل المقوقس إلى عمرو يقول : "إنكم قوم قد ولجتم في بلادنا، وألححتم على قتالنا، وطال مقامكم في أرضنا، وإنما أنت عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم، وجهزوا إليكم، ومعهم العدة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسرى في أيدينا، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم، فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفًا لطلبكم ورجائكم، فابعث إلينا رجالاً من أصحابك نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء."

وعندما أتت رسل المقوقس إلى عمرو بن العاص حبسهم عنده يومين وليلتين، حتى خاف عليهم المقوقس فقال لأصحابه: "أترون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم ويستحلون ذلك في دينهم؟."

وإنما أراد عمرو بذلك أن يروا حال المسلمين، ثم رد عليهم مع رسله: أنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال: إما إن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإما جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين."

المسلمون كما وصفهم الرومان

فلما رجعت رسل المقوقس إليه، قال لهم: كيف رأيتموهم؟ قالوا : "رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد فيهم من العبد، إذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم."

فقال المقوقس: "والذي يحلف به، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقْوى على قتال هؤلاء أحد، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محاصرون بهذا النيل، لن يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض، وقووا على الخروج من موضعهم.

الحوار بين عبادة بن الصامت والمقوقس

ثم بعث المقوقس رسله مرة أخرى إلى عمرو بن العاص ﷺ يقولون له: "ابعثوا إلينا رسلاً منكم نعاملهم، ونتداعى نحن وهم إلى ما عساه أن يكون فيه صلاح لنا ولكم."

فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت، ولم تذكر المصادر أسماء الآخرين، وكان عبادة أسود اللون وطوله عشرة أشبار (أي يتجاوز المترين طولاً)، وأمره أن يكون متكلم الوفد، وألا يجيبهم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى هذه الخصال الثلاث.

ف ركبوا السفن وعبروا من جهة بابليون إلى الجزيرة، فلما دخلوا على المقوقس تقدم عبادة فهابه المقوقس، وقال: "نحُّوا عني هذا الأسود، وقدموا غيره يكلمني". فقالوا جميعا: "إن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا، وإنما نرجع جميعا إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره به، أمرنا بأن لا نخالف رأيه وقوله."

فقال المقوقس: "وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم، وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم؟" فقالوا: لا، إنه وإن كان أسودَ كما ترى، فإنه من أفضلنا موضعا، وأفضلنا سابقة، وعقلاً ورأيا، وليس ينكَر السواد فينا.

ثم قال المقوقس لعبادة: "تقدم يا أسود، وكلمني برفق؛ فإني أهاب سوادك، وإن اشتد كلامك عليَّ ازددت لذلك هيبة."

فتقدم إليه عبادة وقال: "قد سمعت مقالتك، وإن فيمن خلّفت من أصحابي ألف رجل أسود، كلهم أشد سوادا مني، وأفظع منظرا، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم منك لي، وأنا قد وليت وأدبر شبابي، وإني مع ذلك –بحمد الله– ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعا،

وكذلك أصحابي؛ وذلك أنَّا إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله، واتباع رضوانه، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة في دنيا، ولا طلبا للاستكثار منها، إلا أن الله قد أحل ذلك لنا، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً، وما يبالي أحدنا أكان له قنطار من ذهب أم كان لا يملك إلا درهما، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يسد بها جوعته لليله ونهاره، وشَملة يتلحفها، فإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله، واقتصر على هذا الذي بيده، ويبلغه ما كان في الدنيا؛ لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاءها ليس برخاء، وإنما النعيم والرخاء في الآخرة، وبذلك أمرنا ربُّنا، وأمرنا به نبينا، وعهد إلينا أن لا تكون همة أحدنا من الدنيا إلا ما يمسك جوعته، ويستر عورته، وتكون همته وشغله في رضاء ربه وجهاد عدوه."

فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله: "هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط؟ لقد هبت منظره، وإن قوله لأهيب عندي من منظره، وإن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض، وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها."

ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت، فقال: "أيها الرجل الصالح، قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك، ولعمري ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة، ما يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهرا، وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بأيديكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين، ولأميركم مائة دينار، ولخليفتكم ألف دينار فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم، قبل أن يغشاكم ما لا قوام لكم به."

المسلم لا يهاب عدداً ولا عدة

تكلم عبادة عن هدف المسلمين من الجهاد في سبيل الله وهو نشر هذا الدين، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وأن المسلم لا يهاب عددا ولا عدة، فقال للمقوقس: "يا هذا، لا تَغُرَّنَّ نفسك ولا أصحابك؛ أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنّا لا نقوى عليهم،

فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به، ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه، إن كان ما قلتم حقًا فذلك –والله– أرغب ما يكو ن في قتالهم، وأشد لحرصنا عليهم؛ لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه، وإن قُتِلْنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته، وما من شيء أقر لأعيننا، ولا أحب إلينا من ذلك، وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه} :كَم مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ] {البقرة:249[، وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحا ومساء أن يرزقه الشهادة، وألا يرده إلى بلده ولا أرضه ولا أهله وولده، وليس لأحد منا همٌّ فيما خلفه، وقد استودع كل واحد منا ربَّه أهلَه وولده، وإنما همنا ما أمامنا. وأما قولك: إنا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا، فنحن في أوسع السعة، لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن عليه."

عبادة يعرض على المقوقس شروط المسلمين

ثم بعد الحوار يعرض عبادة ﷺ على المقوقس مطالب المسلمين، فيقول: "فانظر الذي تريد فبينه لنا، فليس بيننا وبينكم خصلة نقبلها منك، ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيها شئت ولا تطمع نفسك في الباطل، بذلك أمرني الأمير، وبها أمره أمير المؤمنين، وهو عهد رسول الله ﷺ من قبل إلينا، إما أجبتم إلى الإسلام الذي هو الدين الذي لا يقبل الله غيره، وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته، أمرنا الله أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه؛ فإن فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا، وكان أخانا في دين الله، فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة، ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم، فان أبيتم إلا الجزية فأدوا إلينا الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون، نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأنتم في كل عام أبداً ما بقينا وبقيتم، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم، ونقوم بذلك عنكم إذ كنتم في ذمتنا، وكان لكم به عهد علينا، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا، أو نصيب ما نريد منكم، هذا ديننا الذي ندين الله به، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره، فانظروا لأنفسكم."

فقال له المقوقس: هذا ما لا يكون أبداَ، ما تريدون إلا أن تتخذونا نكون لكم عبيداَ ما كانت الدنيا.

قال عبادة بن الصامت: هو ذاك، فاختر ما شئت.

فقال له المقوقس: أفلا تجيبوننا إلى خصلة غير هذه الثلاث خصال؟

فرفع عبادة يديه فقال: لا ورب هذه السماء، ورب هذه الأرض، ورب كل شيء، ما لكم عندنا خصلة غيرها، فاختاروا لأنفسكم.

فالتفت المقوقس عند ذلك إلى أصحابه وقال: قد فرغ القوم، فما ترون؟

فقالوا: أو يرضى أحدٌ بهذا الذل؟! أما ما أرادوا من دخولنا في دينهم فهذا ما لا يكون أبداَ أن نترك دين المسيح ابن مريم وندخل في دين غيره لا نعرفه، وأما ما أرادوا من أن يسبونا ويجعلونا عبيداَ، فالموت أيسر من ذلك، لو رضوا منا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مرارا كان أهون علينا.

فقال المقوقس لعبادة: قد أبى القوم، فما ترى؟ فراجع صاحبك على أن نعطيكم في مرتكم هذه ما تمنيتم وتنصرفون.

فقام عبادة وأصحابه.

فقال المقوقس عند ذلك لمن حوله: أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة من هذه الثلاث، فوالله ما لكم بهم طاقة، ولئن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم كارهين.

فقالوا: وأي خصلة نجيبهم إليها؟

قال: إذن أخبركم، أما دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم، ولن تصبروا صبرهم، ولا بد من الثالثة."

قالوا: أفنكون لهم عبيداً أبداً؟

قال: نعم، تكونوا عبيداً مسلطين في بلادكم، آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم، خير لكم من أن تموتوا عن آخركم، وتكونوا عبيداً تباعوا وتمزقوا في البلاد مستعبدين أبداً أنتم وأهليكم وذراريكم.

قالوا: فالموت أهون علينا. وأمروا بقطع الجسر من بابليون والجزيرة، وبالقصر من الروم والقبط جمع كثير، فألح عليهم المسلمون عند ذلك بالقتال على من في الحصن حتى ظفروا بهم، ومكنهم الله منهم فقُتِلَ منهم خلق كثير، وأُسِرَ من أُسِرَ، وانحازت السفن كلها إلى الجزيرة

زحف عمرو بن العاص إلى الإسكندرية

بعد سقوط حصن بابليون في أيدي المسلمين أقاموا به، ثم كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يستأمره في الزحف إلى الإسكندرية، فكتب إليه عمر يأمره بذلك. وقد استخلف عمرو بن العاص على ما فتح خارجةَ بن حذافة السهمي، وسار على رأس من معه.

ثم حدث بعد ذلك أمران مهمان، وهما:

-جاء إلى الروم إمدادات كثيرة.

- أصبح للقبط موقف واضح، ألا وهو تعاونهم مع المسلمين.

خرج عمرو بن العاص بالمسلمين حين أمكنهم الخروج، وخرج معه جماعة من رؤساء القبط، وقد أصلحوا لهم الطرق وأقاموا لهم الجسور والأسواق، وصار القبط لهم أعواناً على ما أرادوا من قتال الروم،

و سمع بذلك الروم فاستعدوا واستجاشوا، وقدم عليهم مراكب كثيرة من أرض الروم فيها جموع كثيرة منهم بالعدة والسلاح، فخرج إليهم عمرو بن العاص ﷺ من بابليون متوجها إلى الإسكندرية، فلم يلق منهم أحدا حتى بلغ ترنوط، فلقي بها طائفة من الروم فقاتلوه قتالاً خفيفاً فهزمهم الله، ومضى عمرو بن العاص بمن معه حتى لَقِي جمع الروم بكَوْم شَرِيك، فاقتتلوا به ثلاثة أيام ثم فتح الله للمسلمين، وولّى الروم مدبرين.

وتجمع الروم والقبط دون الإسكندرية ببلدة كرْيُون، وفيهم من أهل سَخا وبَلْهِيب والخَيس وسلْطَيس وغيرهم، وهذا يخالف الروايات الصحيحة التي ذكرت أن القبط كانوا أعوانا للمسلمين مثل رواية ابن عبد الحكم في كتابه "فتوح مصر وأخبارها"؛ ولذلك نذهب إلى أن أهل هذه القرى قام الروم بتجنيدهم وحشرهم ليقاتلوا معهم، وأثخن المسلمون الروم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وطاردوهم حتى بلغوا الإسكندرية فتحصنوا بها. وكانت عليهم حصون لا تُرام؛ حصن دون حصن، فنزل المسلمون ما بين حلْوة إلى قصر فارس إلى ما وراء ذلك، ومعهم رؤساء القبط يمدونهم بما احتاجوا إليه من الأطعمة والعلُوفة.

وقد ذكرنا من قبل أن فتح بابليون كان يوم الجمعة 29 من ذي الحجة 20هـ / 7 ديسمبر 641م؛ وتقول الروايات: إن عمرو بن العاص ﷺ ظل أمام الإسكندرية مُحاصِراً لها ثلاثة أشهر. وتعني هذه الروايات أن المسلمين قطعوا ما بين بابليون حتى الإسكندرية في ستة أشهر، ثم أقاموا أمامها ثلاثة أشهر، وعلى ذلك يكون وصول المسلمين إلى الإسكندرية كان نحو 19جمادى الآخرة21هـ / 23 مايو 642م، ويكون فتحها حدث نحو 19رمضان21هـ / 19أغسطس642م، وقد ذكر خليفة بن خياط في تاريخه أن فتحها كان سنة 21هـ على يد عمرو بن العاص.ﷺ

إحكام الحصار على حصن كِرْيُون

فر الرومان نحو الإسكندرية، وكان حصن كريون آخر سلسلة الحصون قبل الإسكندرية، وقد اعتصم به "تيودور" قائد الجيش البيزنطي مع حامية قوية، وبعد أن تمكن المسلمون من اقتحامه فَرَّ "تيودور" وبعض أفراد حاميته إلى الإسكندرية.

وقد أدرك عمرو فور وصوله إلى الإسكندرية ودراسته للوضع الميداني أن المدينة حصينة؛ إذ يحيط بها سوران محكمان، ولها عدة أبراج، ويحيط بها خندق يملأُ من ماء البحر عند الضرورة للـ دفاع، وتتألف أبوابها من ثلاث طبقات من الحديد، ويوجد مجانيق فوق الأبراج، وقد بلغ عدد جنود حاميتها بعد الإمدادات التي أرسلها الإمبراطور البيزنطي خمسين ألف جندي، ويحميها البحر من الناحية الشمالية، وهو تحت سيطرة الأسطول البيزنطي، الذي كان يمدها بالمؤن والرجال والعتاد، وتحميها قريوط من الجنوب، ومن المتعذر اجتيازها، وتلفها ترعة الثعبان من الغرب، وبذلك لم يكن للمسلمين طريق إليها إلا من ناحية الشرق، وهو الطريق الذي يصلها بكريون، وكانت المدينة حصينة من هذه الناحية، ومع ذلك لم ييأس، ووضع خطة عسكرية ضمنت له النصر في ا لنهاية، قضت بتشديد الحصار على المدينة حتى يتضايق المدافعون عنها، ويدب اليأس في نفوسهم، فيضطرون للخروج للاصطدام بالمسلمين لتخفيف وطأة الحصار، وهكذا يستدرجهم ويحملهم على الخروج من تحصيناتهم، ثم ينقض عليهم.

ونتيجة لاشتداد الصراع في القسطنطينية بين أركان الحكم، انقطعت الإمدادات البيزنطية عن الإسكندرية، إذ لم يعد أحد منهم يفكر في الدفاع عنها، مما أَثَّر سلباً على معنويات المدافعين عنها، فرأوا أنفسهم معزولين ولا سند لهم، ومما زاد من مخاوفهم ما كان يقوم به المسلمون من غارات على قرى الدلتا والساحل، فإذا سيطروا عليها فسوف يقطعون الميرة عنهم.

رسالة أمير المؤمنين إلى عمرو

وكان عمر بن الخطاب ﷺ في المدينة ينتظر أنباء فتح مصر، وهو أشد ما يكون استعجالاً لنبأ سقوط الإسكندرية في أيدي المسلمين، ولكن هذا النبأ أبطأ عنه أشهرا، فذهب يبحث عن السبب، وهو لم يقصر عن إمداد عمرو بما يحتاج إليه من المساندة التي تكفل له النصر، وخشي أن تكون خيرات مصر قد غَرَّت المسلمين فتخاذلوا؛ فقال لأصحابه: "ما أبطَئُوا بفتحها إلا لما أحدثوا"، أي لما أحدثوا من ذنوب، وكتب إلى عمرو بن العاص:

" أما بعد، فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، إنكم تقاتلونهم منذ سنتين، وما ذاك إلا لما أحدثتم، وأحببتم من الد نيا ما أحب عدوكم، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قوما إلا بصدق نياتهم، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما كنت أعرف، إلا أن يكونوا غيَّرهم ما غيَّر غيرهم، فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس، وحضَّهم على قتال عدوهم، ورغِّبهم في الصبر والنية، وقدِّم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومُر الناس جميعا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة، فإنها ساعة تنزل الرحمة، ووقت الإجابة، وليعج الناس إلى الله ويسألوه النصر على عدوهم."

تحقيق النصر.. ونجاح الفتح وعندما أتى عمرا الكتاب جمع الناس، وقرأ عليهم كتاب عمر، ثم دعا أولئك النفر، فقدمهم أمام الناس، وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين، ثم يرغبوا إلى الله عز وجل ويسألوه النصر؛ ففعلوا ففتح الله عليهم.

ويقال: إن عمرو بن العاص استشار مَسْلَمَة بن مُخَلَّد في قتال الروم بالإسكندرية، فقال له مسلمة: أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله ﷺ، فتعقد له على الناس، فيكون هو الذي يباشر القتال ويكفيك. قال عمرو: ومن ذلك؟ قال: عبادة بن الصامت.

فدعا عمرو عبادةَ فأتاه وهو راكب فرسه، فلما دنا منه أراد النزول، فقال له عمرو: عزمت عليك لا تنزل؛ فَنَاوِلْنِي سِنَانَ رُمحِك. فناوله إياه، فنزع عمرو عمامته عن رأسه وعقد له، وولاه قتال الروم، فتقدم عبادة مكانه، فقاتل الروم حتى فتح الله على يديه الإسكندرية من يومهم ذلك.

يقول جنادة بن أبي أمية: دعاني عبادة بن الصامت يوم الإسكندرية، وكان على قتالهم، فأغار العدو على طائفة من الناس ولم يأذن لهم بقتالهم، فسمعني فبعثني أحجز بينهم، فأتيتهم فحجزت بينهم، ثم رجعت إليه، فقال: أَقُتِلَ أَحَدٌ من الناس هنالك؟ قلت: لا. فقال: الحمد لله الذي لم يقتل أحدًا منهم عاصيا.

لقد عانت الإسكندرية من الحصار، وأَدَّى ذلك إلى هبوط معنويات الجند والقادة، خاصة بعد وفاة هرقل، فأسرع المقوقس بالسفر إلى مصر على رأس جنده لتسليم المدينة، ورافقه عدد من القساوسة، وبذلك فتح الله الإسكندرية على المسلمين.

صورة رائعة من حضارة المسلمين في التعامل مع الأعداء تمَّ هذا الفتح عنوة، ولكن عمرا جعل أهلها ذمة على أن يخرج من يخرج، ويقيم من يقيم باختيارهم، شأن المسلمين مع أهالي معظم البلاد التي فتحوها، وإنما عامل عمرو المصريين معاملة من فُتِحَتْ بلادُهم صلحًا ليستجلب محبتهم، وتتألف الهدنة التي عقدها المقوقس مع عمرو بن العاص من أمرين:

الأمر الأول: شروط تسليم مدينة الإسكندرية، ومنها: -أن يدفع أهل الإسكندرية الجزية المستحقة عليهم دينارين كل عام.

- أن يحافظ المسلمون على الكنيسة المسيحية، فلا يتعرضون لها بسوء، ولا يتدخلون في شئونها.
- أن يتمتع أهل الإسكندرية بالحريات الدينية.

-أن تعقد هدنة مدتها 11 شهرا، يبقى المسلمون في أثنائها عند مواقعهم الأولى.

-أن يكف الروم عن القتال، وألا يحاولوا استرداد مصر، ولا تعود إليها قوة حربية.

- أن ينسحب البيزنطيون، ويأخذون معهم أموالهم وأمتعتهم عن طريق البحر. وإذا تمَّ الانسحاب دخلت قوات المسلمين واحتلت المدينة.

-أن يكون عند المسلمين من الروم 150 جنديًّا، و50 مدنيًّا رهينة؛ لتنفيذ المحافظة على الجالية اليهودية، وكان عددها عظيما.

-أن يرحل جند الروم من الإسكندرية في البحر على أن يحملوا متاعهم وأموالهم، ومن أراد الرحيل برًّا فليدفع كل شهر جزءا معلوما من المال، ما بقي في أرض مصر أثناء رحلته.

الأمر الثاني

أن المعاهدة القديمة التي عقدها المقوقس مع عمرو بن العاص ﷺ بحصن بابليون، ستطبق على القطر المصري كله، وتصبح معاهدة يدخل فيها جميع المصريين من حيث تأمين أهل مصر على أنفسهم ومِلّتهم وأموالهم وكنائسهم وصُلُبِهم وبَرِّهم وبحرهم، بما يضمن منح المصريين حقوقهم وحرياتهم، وقد حمل "قيرس" شروط الصلح إلى "تيودور" وهو القائد الأعلى للجيش للموافقة عليها، وأُرسِلت إلى قنسطانز فأقرها، ولكن الروم بعد ذلك لم يحترموا هذه المعاهدة؛ فقد أرسل الإمبراطور جيشًا بقيادة "منويل"، فاحتلها وقتل حاميتها.

وبالفعل تمَّ تنفيذ الاتفاق، وأخلى الروم الإسكندرية، ورحلوا عنها قبل حلول الموعد المحدد لانتهاء الهدنة بين الطرفين، إذ تمَّ إخلاؤها بتاريخ السابع عشر من سبتمبر سنة 642م.

تأمين حدود مصر

لقد حرص عمرو بن العاص على تأمين الإسكندرية من هجمات الأعداء المباغتة، فجعل نصف جنده معه بالفسطاط، وأمر النصف الآخر بالمرابطة بسواحل مصر، خاصة الإسكندرية، بحيث يتم ذلك بالتبادل صيفاً وشتاء، مدة ستة أشهر لكل فريق مع توفير المساكن اللازمة للإقامة هناك.

وبعد أن فرغ المسلمون من فتح مصر، رأى عمرو بن العاص ﷺ ضرورة تأمين حدودها من جهة الغرب، وبخاصة أن الروم قد أُجبِروا على الخروج منها، وهم يتحينون الفرصة لاستعادتها. ولما كانوا يبسطون نفوذهم وسلطانهم على المناطق التي تقع غرب مصر حتى المحيط الأطلنطي، كان لا بد من تأمين تلك الحدود؛ لذلك كان من الضروري استمرار الفتح غربا لارتباط تلك المناطق الوثيق بمصر؛ فقد كانت أنطابلُس (برقة) وطرابلس قد انفصلتا عن الإمبراطورية البيزنطية منذ عهد موريس 583- 602م، وكانتا شبه مستقلتين وتابعتين لمصر رسميًّا، وأيدتا "جريجوريوس" لدى انفصاله عن الإمبراطورية البيزنطية.

عمرو بن العاص وإنشاء الفسطاط

يعتبر تخطيط وإنشاء المدن الإسلامية من الأعمال العمرانية المهمة التي قام بها عمرو، لقد كان الهدف من إنشاء هذه المدن من أجل جند المسلمين وعائلاتهم في المناطق المفتوحة؛ ليكون الجند فيها مستعدين دائما للجهاد في سبيل الله، وللدفاع عن حدود الدولة الجديدة، ونقطة انطلاق عسكري لأي توسع إسلامي. وكان المسلمون قبل إنشاء المدن يقيمون بمساكن من القصب، فكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حتى يرجعوا من الغزو، وإذا رجعوا أعادوا بناءه، فلم تزل الحال كذلك حتى كانت أوامر أمير المؤمنين ببناء المدن.

وإذا ما بحثنا في تاريخ العرب المسلمين نرى أنهم حين خرجوا من شبه الجزيرة العربية فاتحين ورجال دعوة للدين الإسلامي، وبناة حضارة جديدة، كانوا قد تعودوا على الاستقرار في المدن كمكة والمدينة، ناهيك عن إقامتهم في المدن التي كانت قائمة في جنوبي الجزيرة العربية منذ الألف الثاني قبل الميلاد، وحضارات عرب سوريا قبل الإسلام كالأنباط والتدمريين والغساسنة واللخميين.

لذلك يمكننا القول: إن العرب المسلمين حينما خرجوا فاتحين كانوا مهيئين لهذه النقلة التاريخية من طور البداوة إلى طور الحضارة، وهذا ما جسده بناء البصرة والكوفة، ثم الفسطاط في عهد الخليفة عمر بن الخطاب.

وفي ذلك نقول: إن الدعوة الإسلامية أحدثت ثورة دينية، وسياسية، واقتصادية؛ فقد تجاوز الإسلام بالعرب الحدود القبلية، ثم وحدهم بحروب الردة في نطاق أمة واحدة، ودفعهم إلى الجهاد فأخرجهم من مواطنهم إلى آفاق جغرافية جديدة، ولم يعد المتتبع لسير حركة الفتوح يرى فيهم جماعات متعددة، وإنما يرى جماعة واحدة، تملأ عقيدتها ما كان بينها من فراغ.

وقد أُنشِئَت البصرة سنة 15هـ، والكوفة سنة 17هـ، والفسطاط سنة 21هـ.

إنشاء الفسطاط

تقع الفسطاط في إقليم مصر على ساحل النيل في طرفه الشمالي الشرقي، قبل القاهرة بحوالي ميلين، وكان النيل عندها ينقسم إلى قسمين، وموضعها كان فضاء ومزارع بين النيل والجبل الشرقي، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن بابليون الذي يطل على النيل من بابه الغربي الذي يعرف بباب الحديد، واستفادت الفسطاط من موقعها على النيل بنتيجتين:

فقد يسر النيل للأهالي سبل الحصول على الماء من جهة، وخدم توسعها العمراني من جهة ثانية، فتحكمت بطرق المواصلات التجارية الداخلية والخارجية بين مصر والشام، وبين مصر والحجاز.

وقد اكتشف هذا الموقع الإستراتيجي الفراعنة والبابليون والرومان، فاتخذ منه الفراعنة مكانا لمدينة كبيرة، جعلها البابليون مكانا لاستقرارهم عند نزولهم في مصر، ثم اتخذه الرومان مقرًّا لدفاعهم يصلون به الوجهين البحري والقبلي، ويدفعون منه كل معتد خارجي على مصر.

والفسطاط من حيث المناخ، تتبع المناخ شبه الصحراوي، فهي حارة نهارا وباردة ليلاً، لا ينزلها المطر إلا نادرا، كما هو الحال في باقي إقليم مصر ما عدا الإسكندرية.

وبعد الصلح سار المسلمون إلى الإسكندرية وعاونهم القبط في أعمالهم، ورحبوا بهم. وعند حصن الإسكندرية اقتتلوا قتالاً شديدا، ثم تمَّ لهم فتحها بعد حصار دام بضعة أشهر، وقبل أهل مصر الصلح.

وعليه نشير إلى أن عمرو بن العاص حينما عزم على التوجه إلى الإسكندرية، أمر بنزع فسطاطه الذي ضربه قرب حصن بابليون، فإذا فيه يمام قد فرخ فأقره كما هو.

وحينما فتح المسلمون الإسكندرية أراد عمرو بن العاص اتخاذها عاصمة ودار هجرة للمسلمين، فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك، فسأل عمر رسول عمرو بن العاص: "هل يحول بيني وبين المسلمين الماء؟" فأجابه: نعم.

فكتب عمر إلى ابن العاص أن يرحل عن هذا المكان؛ لأنه لا يريد أن يحول بينه وبين المسلمين الماء، لا في الصيف ولا في الشتاء.

فتحول عمرو بن العاص إلى موضع فسطاطه القديم، وذلك حينما استشار أصحابه أين ينزلون، فأشاروا عليه بالنزول في هذا الموضع، وكان مضروبا في موضح الدار التي تعرف بدار الحصى عند دار عمرو الصغرى، ثم انضمت إليه القبائل وتنافست في المواضع، واختط عمرو المسجد الجامع الذي عرف بتاج الجوامع، وكان حوله حدائق وأعناب، وقام عمرو بنصب الحبال مع أصحابه حتى استقامت، وقد اشترك في وضع قبلة المسجد من ثمانين صحابيًّا، واتخذوا فيه منبرا، ثم اختط الناس بعد اختطاط المسجد الجامع، ونزل المسلمون الفسطاط بعد تمصيره سنة 21هـ.

هذا، وقد أنزل عمرو بن العاص القبائل العربية بالفسطاط، وبعد أن اختط المسجد الجامع، بنى للخليفة عمر دارا عند المسجد، فكتب إليه عمر قائلاً: "أنَّى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر؟!" وأمره أن يجعلها سوقًا للمسلمين، وتمَّ ما أراده أمير المؤمنين، وأصبحت هذه الدار تسمى بدار البركة.

وسرعان ما اتخذت الفسطاط مظهر المدينة بجامعها الكبير، وبأسواقها التجارية التي أحاطت به، وبدور السكن التي ارتفعت بمرور الزمن إلى خمسة وسبعة أطباق، وعظم أمرها واغتنت، وكثر ساكنوها حتى قاربت ثلث بغداد مساحة، أي حوالي فرسخ على غاية الخصب والعمارة والحضارة، وبقيت دار الإمارة حتى سقطت الدولة الأموية، وبنيت المعسكرات بظاهرها.

وقد وفِّق عمرو بن العاص في اختيار الموقع الإستراتيجي لبناء الفسطاط سياسيًّا وجغرافيًّا؛ فالموقع ا لذي ضرب عليه عمرو فسطاطه كان موضعا لمدينة قديمة اندثرت ثم ازدهرت ثانية مع دخول الإسلام لمصر، وإنما بنمط معماري جديد وبحياة وحضارة جديدتين، حتى أصبحت الفسطاط –مع هذا كله– مدينة جديدة زاهرة بكل ما يجعل شأن العواصم كبيرا.

وكان ذلك إيذانا بدخول وادي النيل في الإسلام لتسطع من الفسطاط فيما بعد أنوار الحضارة العربية الإسلامية وأنوار الدين الإسلامي، ولتصبح فيما بعد قاعدة الفتوح الإسلامية في المغرب.

وعن سبب التسمية نشير إلى أن عمرو بن العاص كما يذكر الطبري، وبعد فتح حصن بابليون أراد رفع الفسطاط والمسير إلى الإسكندرية لإتمام فتح مصر، فإذا يمام قد فرخ في أعلاه فتركه على حاله، وأوصى به صاحب الحصن والقصر.

فلما فتح الإسكندرية وأراد الاستقرار بها نهاه عمر بن الخطاب عن ذلك، وأوصاه باختيار موضع وسط يتيسر الاتصال به، فلم يجد عمرو أنسب من اختيار الموقع الملاصق لحصن بابليون لحصانته وموقعه، وسأل أصحابه: أين تنزلون؟

قالوا: نرجع إلى موقع فسطاطه؛ لنكون على ماء وصحراء. فعاد إليها ومصَّرها وأقطعها للقبائل التي معه، فنسبت المدينة إلى فسطاطه، فقيل: فسطاط عمرو. فالفسطاط على هذا النحو معسكر أو مخيم أو بيت من الشَّعر.

ويذكر ابن قتيبة في كتابه عيون الأخبار أن العرب يقولون لكل مدينة: الفسطاط، ولذا سموا مصر بالفسطاط، ويستشهد على ذلك بحديث للرسول ﷺ رواه أبو هريرة، قال فيه: "عليكم بالجماعة؛ فإن يد الله على الفسطاط" أي المدينة.

تخطيط الفسطاط

وعن تخطيط المدينة العمراني نشير إلى أن أول بناء اختطه عمرو بن العاص في الفسطاط كان مسجده الجامع، وكان مسجداً كبيرا شريف القدر شهير الذكر، ثم بنى عمرو داره الكبرى عند باب المسجد، وكان يفصلها عن الجامع طريق، ثم اختط دارا أخرى ملاصقة لها، وبنى حمام الفار (الذي سمي كذلك لصغر حجمه، قياسا بحمامات الروم الضخمة)، واختطت قريش والأنصار وأسلم وغفار وجهينة، ومن كان قد اشترك في جيش المسلمين حول المسجد الجامع ودار عمرو.

هذا، وكانت هذه الخطط في الفسطاط بمثابة الحارات في القاهرة، واختط خارجة بن حذافة غربي المسجد، وبنى أول غرفة بمصر، والغرفة هي قاعة تعلو الدار وتطل على الطريق، وهي التي أمره عمر بن الخطاب بهدمها؛ لكي لا يطلع على عورات جيرانه.

أما الدار البيضاء التي استغرق بناؤها أربعين يوما فاختطها عبد الرحمن بن عُدَيس البلوي، وبُنِيَتْ لمروان بن الـ حكم حين قدم إلى مصر، وكانت صحناً وموقفاً لخيل المسلمين بين المسجد ودار عمرو.

وبنى عمرو بن العاص لبني سهم دار السلسلة الواقعة غربي المسجد، واختطت ثقيف في الركن الشرقي للمسجد الجامع، واختط أبو ذر الغفاري دار العمد ذات الحمام، واختطت همذان الجيزة، وحينما أخبر عمرو عمر بن الخطاب بذلك ساءه، وكتب إلى عمرو يقول:

كيف رضيت أن تفرق عنك أصحابك؟! لم يكن ينبغي لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر، لا تدري ما يفاجئهم، فلعلك لا تقدر على غياثهم حتى ينزل بهم ما تكره، فاجمعهم إليك، فإن أبوا عليك وأعجبهم موضعهم فابنِ عليهم من فَيء المسلمين حصناً.

وحينما لم يرجعوا ومن والاهم من رهطهم كيافع وغيرها، بنى لهم عمرو الحصن سنة 22هـ.

جامع عمرو

هو أول جامع أقيم في مصر، ويعرف بالجامع العتيق، وكان موضعه جبانة، وعندما نزل المسلمون في مكانه حاز موضعه قيسبة بن كلثوم التجيبي ونزله، وحينما رجع المسلمون من الإسكندرية إلى هذا المكان، سأل عمرو قيسبة في منزله هذا أن يجعله مسجدا، فتصدق به على المسلمين، فبُنِي في سنة 21هـ، وقد وقف على تحرير قبلته جمع كبير من جِلة الصحابة رضوان الله عليهم، قال المقريزي: إنهم ثمانون رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ، منهم :الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، و أبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري، وغيرهم رضي الله عنهم، وكان طوله خمسين ذراعا في عرض ثلاثين، ثم توالت الزيادات، إلى أن كانت سنة 212هـ، إذ أمر عبد الله بن طاهر والي مصر من قبل المأمون بتوسيعه، فزيد فيه مثله، وبذلك بلغت 5012 * 50120 مترا.

وكانت تقام فيه حلقات الدروس، بعضها للإرشاد، والآخر لدروس الفقه والحديث وعلوم القرآن والأدب، فكان جامعة إسلامية ذاع ذكرها في الآفاق، وصار يقصدها الطلاب من الأقطار المختلفة.

ويروي ابن إسحاق أن عمرا بنى بعد فتح الإسكندرية مسجداً، كان لا يزال باقيا إلى عصره.

فهرس